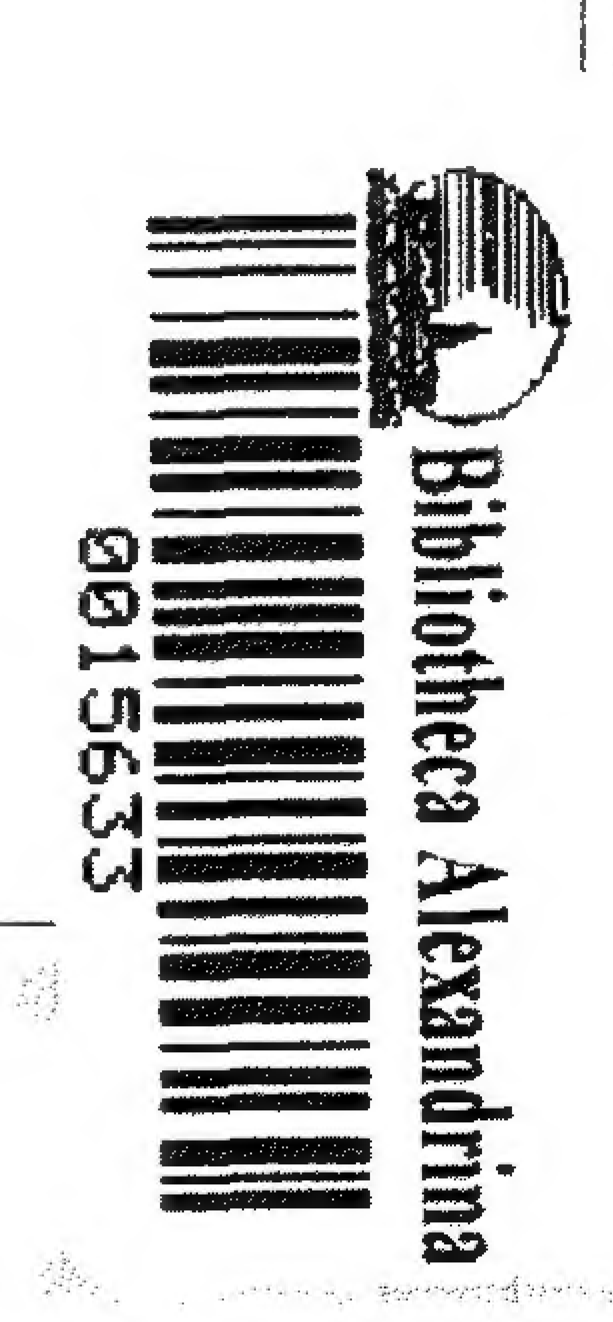
الأعلام من الأدباء والشعراء



قاسم أمين

بين الأدب والقضية

تأليف
غريد الشيخ



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



تأليف

غريد الشيخ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٣ ٢١ ٦٠٢ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٣٣ ٢١ ٦٠٢/٩٦١١/٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدِّمة

مَن هو قاسم أمين؟ . .

إنه ليس القاضي الممتاز الذي قرأنا عن عدله وقربه من كل أصحاب القضايا عنده. . . إنه الإنسان الفنّان المطبوع منذ يقظة شعوره ودقة ملاحظته وغلبة العاطفة عليه.

لقد شُغف بالفن الجميل وأدرك ما له من تأثير على تهذيب النفس الإنسانية وترقية الأمم. .

فنقل تجاربه ومُشاهداته بصور وأشكال مُتعدِّدة مُلوّنة وأعطانا إيّاها وكأنها متحف يحتوي الكثير من النماذج والصور والمناظر على اختلاف الألوان.

اعتمد البحث والتدقيق والبراهين في كُتُبه ولكن بريشة حسّاسة اعتمدت الوصف والتعليقات والمذكرات. .

وقد عرف الذوق السليم فقال: «هو هذا الإحساس الفطري الذي ينمو ويتهذّب بالتربية. هو الشعاع اللطيف الذي يهدي صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يُناسب المقام ويجتذب ما لا يُناسبه».

ولا ننسى أن قاسم أمين رغم اقتران اسمه بتحرير المرأة فإنه أكثر من مُصلح اجتماعي وأكثر من قاضٍ: إنه مُصلح وقاضٍ وفنّان.

عصر قاسم أمين

قاسم أمين ابن عصره، صنعته أحداث العصر، وكان له دوراً هامّاً في حياة أمّته..

والأحداث قد بدأت تجري مسرعة عجلة مع بداية النصف الثاني من القرن الماضي. وكان الوعي السياسي قد بدأ يُساير تلك الأحداث في العالم الإسلامي كله.

وكان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي بعض الأبطال في تلك القصة الطويلة.

وقد كان لوضع المسلمين المُتردي السبب الأكبر في نشوء المُناقشات لرسم سُبُل الإصلاح وقد توهم الكثيرين من الحكماء أن الإسلام والنظام لا يجتمعان فما هو السبب؟...

عزّى بعضهم السبب إلى عدم وجود الزعيم المُخلص الذي تنقاد له الأمراء والناس ورأى آخرون أن الدين الحاضر ترك إعداد القوة بالعلم والمال والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر وإقامة الحدود وإيتاء الزكاة.

وردّد محمد عبده في جريدة العُروة الوُثقى صيحة ظلّ يُردّدها طيلة حياته، فيتردد صداها في أسماع الناس كأن يتجه إلى العلماء قائلاً: «اختلّت الشؤون، وفسدت الملكات والظنون، وساءت أعمال الناس،

وضلّت عقـائدهم، وخـوت عباداتهم من روح الإخـلاص، فـوثب بعضهم على بعض بالشر، وغالب أكثرهم أغوال الفقر، فتضعضعت القـوة، واخترق السيـاج، وضاعت البيضـة، وانقلبت العـزّة ذلّـة، والهداية ضلّة، وساكنتكم الحاجـة، وألفتكم الضرورة، ولا تزالـون تألمون مما نزل بكم وبالناس، فهلاّ نبهكم ذلك إلى البحث في أسباب ما كان سلفكم عليه، ثم عللَ ما صرتم وصار الناس إليه؟. قالوا: ذلك ليس إلينا، ولا فرضـه الله علينا، وإنمـا هو للحُكّـام ينظرون فيـه، ويبحثون عن وسائل تلافيه، فإن لم يفعلوا ـ ولن يفعلوا ـ فذلك لأنه آخر الزمان، وقد ورد في الأخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة، وأن الإسلام لا بد أن يُرفع من الأرض ولا تقوم القيامة إلاّ على لكع بن لكـع. واحتجوا عـلى اليأس والقنـوط بآيـات وأحاديث وآثـار تقطع الأمل، ولا تدع في نفس حركة إلى عمل.»[1].

ولم يقتصر البحث في سبب انهيـار البنـاء الإسـلامي عـلى العلماء وحدهم، فقد سُلِّط الضوء على هذا الجسم المريض. فالداعـون إلى الإصلاح لا يفتأون يتداولون الأمر والشعب قد بدأ يُشارك برأيه.

وقد برز اتجاهان سارا جنباً إلى جنب، محمد عبده ينتقل من بلد إلى بلد يحاول إصلاح الدين، ورجال آخرون يحاولون الإصلاح السياسي عن طريق الدين كالكواكبي وغيره، وكان الاتجاهان في الواقع من وحي جمال الدين الأفغاني، الذي وجّه جيلاً بأكمله.

كان الموقف بعد منتصف القرن التاسع عشر قد حرّك الجموع في الوطن العربي، فثارت تحمل راية الدعوات الفكرية الدينية وتسير جميعاً إلى هدف واحد هو التحرر من ضروب الاستبداد.

---

(١) الإسلام بين العلم والمَدَنية/ محمد عبده.

وهذا هو طابع الثورة العُرابيـة بمصر وهدفهـا وثورة المهـدي، في السودان، وثورة الوهابيين بالحجاز وثورة السنوسي في ليبيا. واصطبغت أرض الوطن العربي بالدماء، فقد أعوزتها القوة المادية وتطهير قواعدها من العناصر الضعيفة والبطل الذي يفهم نفسية الثورة.

وكان الأوروبيون قد بدؤوا يتطلعون إلى الدول الإسلاميـة فيسيل لعـابهم، ثم تبدأ أنيـابهم تنهش هذا الجسـد الواهي عضـواً عضواً. فالفرنسيون يستولون على الجزائر ثم تونس، وروسيا تضم القـوقاز، وإنجلترا تسيطر على الهند ثم على مصر، وهولندا على أندونيسيا ومن هنا جاء التفكير في التكتل لصـد هذا التيـار الأوربي وفي بث الوعي لتتفتح العيون، وفي الإصلاح الشامل من أجل البقاء.

والواقع أنه منذ بداية القرن الماضي كان الوضع في مصر قد بـدأ يتغير، فقد تهيأت لها من الأسباب ما جعلها تقوى على أن تفتح نوافذها المُغلقة، فيُقبل نسيم يزيح هذا الجو الخانق وتتثاءب مصر لتطرح عنها خمار نوم طويل. أكانت الحملة الفرنسية هي بدايـة النهضة أو عصر محمد علي؟. . الحقيقة أن بداية الإحساس بالحاجة إلى التطور يبدأ منذ جاءت الحملة الفرنسية، حين نقرأ قول الشيخ حسن العطّار:

«وإن بلادنا لا بد أن تتغيّر أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها».

جاء نابليون إلى مصر بأسطوله وجيـوشه، وأذاع المنشـورات على الشعب، ولكن الشعب لم يهدأ أبداً. وأخيراً فضّل نابليون أن لا يُقامر بمستقبله في وادي النيل، ورحلت الحملة الفرنسية. وظهر محمد علي بعد أن اختاره الشعب، وكان فكر محمد علي محصـوراً في بناء جيش يُوطّد به الأمن في الداخل، ويكون وسيلة إلى تحقيق مآربه في الخارج.

ومن هنا أُنشئت المدرسة الحربية ومدارس الطب والصيدلة والهندسة. ولكن المصريين لا يستطيعون تدريس تلك العلوم، فالطب يحتكره المُشعوذون والصناعات متأخرة، فكان لا بد من استقدام الأساتذة الأجانب والاستعانة بالتراجمة، ثم إرسال البعثات.

فسافر رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وغيرهما إلى أوربا، وهناك تفتحت عيونهم وعقولهم على مشاهد لم يألفوا لها مثيلاً في بلادهم. رأوا في البلاد الاوربية دساتير تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ونشاطاً في كل ألوان الحياة، وتقدماً علمياً ومادياً غريباً عليهم. والتفت معظم المبعوثين إلى تيار العلم المُتدفق وكلهم حماسة لنهضة بلادهم.

وعاد هؤلاء المبعوثون - فكانوا أول صلة حقيقية بين مصر وبين الثقافة الأوربية في العصر الحديث، رأوا بلادهم في أول الطريق لبناء النهضة فعملوا على السير بها شوطاً طويلاً في ذلك الطريق.

وإذا بهم يصبحون قدوة للشباب، فتزداد الرغبة في التعلم وتتسع ميزانية التعليم مع توالي الأعوام في سيرها السريع بعد أن أتمّ النصف الاول من القرن الماضي دورته. ثم ينتشر التعليم على نطاق شعبي في القرى، ويتكوّن اتحاد الشبيبة المصرية الذي يدعو الأفراد إلى فتح المدارس والتوسع في التعليم الحر تخفيفاً للعبء المُلقى على الميزانية، وسبباً وراء نشر الثقافة بين أبناء البلاد على نطاق واسع، وتكثر المدارس الأجنبية كثرة لم تعرفها مصر من قبل، وتجتذب نفراً كبيراً من أبناء المصريين الراغبين في تعلم اللغات الأجنبية التي أصبح لها شأن كبير.

وتنداح دائرة النهضة في الناحيتين الثقافية والاجتماعية وذلك عن طريق انتشار الصحف والجمعيات العلمية والمطابع ودور الكتب وغيرها من عوامل الرقي. ومن أهم هذه الصحف (الوقائع المصرية) التي أسند

تحريرها إلى أحمد فارس الشدياق وهو صحفي مثقف وأديب كبير من أدباء القرن الماضي، وظهرت صحف رسمية أخرى مثل (الجريدة العسكرية المصرية) و (اليعسوب الطبية) و (روضة المدارس). وهذه الأخيرة ظهرت عام ١٨٧٠ وكانت تهتم بالاجتماع والتاريخ والأدب وقد أفسحت صدرها للطلبة، فكتب فيها يومئذٍ الشاعر إسماعيل صبري بعض قصائده وكان ما يزال تلميذاً صغيراً.

أما الصحف الشعبية فمنها صحيفة (وادي النيل) و (نزهة الأفكار) وغيرها. وكان يرد إلى مصر بعض الصحف الشرقية (كالجوائب) التي كانت تصدر في الأستانة، وكانت تنشر للأدباء المصريين. وهذه الفترة كانت دليلاً على انتشار عدد القرّاء وبالتالي بداية انتشار ثقافة العصر.. وظهرت حركة الطباعة وإحياء القديم فطبع كثير من أمهات كتب الأدب والتراجم والتاريخ والمعاجم.

وقد كان لهذا كله أثره في تطور الحركة العقلية، فنشطت حركة التأليف، وأصبح المصريون يؤلفون في شتى فروع المعرفة. كما نشطت حركة الترجمة وكان لتغلغل نفوذ الأجانب في مصر الأثر الأكبر على ازدياد نشاط حركة الترجمة حتى قيل إن تلاميذ رفاعة الطهطاوي قد عرّبوا نحو ألفي رسالة وكتاب.

ولم يقتصر النشاط الفكري على هذا، بل ألفت الجمعيات العلمية التي لا تعتمد على معونة الحكومة في تأدية رسالتها وذلك دليل آخر على انتشار الوعي بين الناس.

فتألفت جمعية المعارف لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر سنة ١٨٦٨. كذلك أسست الجمعية الجغرافية للعناية بالأبحاث الجغرافية ولها مجلة دورية.

وقد بُنيت دار الأوبرا في ذلك الوقت وقامت نهضة مسرحية بلغت الذروة فتعددت المسارح وأُلفت الروايات وعُرِّبت التمثيليات حتى لقد ألّف يعقوب صنوع وعرّب وحده نحو أربعين مسرحية.

وفي الربع الأخير من القرن الماضي ظهرت الدعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية، وكان أصحابها ممن جذبتهم مظاهر الحياة في أوربا واقترن في أذهانهم حاضر الشرق الضعيف بتقاليده الموروثة. وطبيعي أن ينقسم المجتمع أمام تلك الدعوة، وطبيعي أيضاً أن تجد فريقاً كبيراً يخشى خطرها فيزداد تمسكاً بتقاليده ودينه ومُثُله الشرقية.

على أن هذا الاختلاف بين الفريقين، والنقاش الحاد الذي ضمته صفحات الجرائد والمجلات قد أوجد وعياً اجتماعياً لا شك فيه، وجعل الناس يُوازنون بين الأمور مُوازنة ناضجة، فكان كل هذا أشبه بالشك الذي يلد اليقين.

وكانت جماهير الشعب تُشارك في دراسة أمورها السياسية وكانت تسعى إلى تثقيف نفسها، وكان هناك قادة ومُصلحون. سلسلة من الأعلام على رأس كل فصل من فصول قصة القرن الماضي تُخاطر بأرواحها من أجل حياة أفضل... كان هناك جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ورفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وغيرهم.

يقول جمال الدين الأفغاني: «إن الإسلام فتح أبواب الشرق للأنفس كلها، وأثبت لكل نفس الحق في السمو، ومحق امتياز الأجناس، وتفاضل الأصناف، وقدّم الناس بالكمال العقلي والنفسي، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأي شيء آخر. إن الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم».

«. . . ماذا تنفع الحكومة الصالحة إذا كان الشعب غير صالح؟ . . . لقد علّمنا التاريخ أن الحكومة لا تستقيم إلاّ إذا كان في الأمر رأي عام يخيفها، ويُلزمها أداء واجباتها، والوقوف عند حدِّها، فإذا لم يكن ذلك، فالطبيعة البشرية تُملي على الحكّام أن يستأثروا بالمنافع، وغاية ما يُتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسَّسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها، فإذا زالت حلَّ محلها من لا يصلح، إذ لا شأن للأمة في اختيارها ولا رقابة لها على أعمالها.

انظروا أهرام مصر، وهياكل منفيس، وآثار طيبة، ومشاهد سيوة، وحصون دمياط، فهي شاهدة بمنعة آبائكم وعزّة أجدادكم، هبّوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء».

وطارت شرارة الثورة العربية. . ونُفي الأفغاني من مصر، ذهب إلى الهند وإيران وتركيا، يُواصل بث دعوته إلى الوحدة الإسلامية الشاملة التي يكون دستورها الدين بعد تنقيته من شوائب عصور الضعف، ويترك في كل مكان حلّ به أثر أي أثر. .

إن شعارات الثورة الفرنسية ـ تلك التي حملتها الماسونية ـ هي التي شوّقته وهو يسعى لدكّ صروح الظلم. . ومن المؤكد أنه اختار باريس وما وراءها من تقاليد الثورة، جواً يستأنس به ليُصدر مع تلميذه الشيخ محمد عبده مجلتها (العروة الوثقى) لتأثره بشعاراتها. وربما كانت فكرة المساواة هذه، هي التي ساوت عنده بين المرأة والرجل في أحاديثه التي كان يلقيها.

ولا يغيب عن سماء مصر الروّاد فقبله، كان رفاعة الطهطاوي وبعده كان أديب إسحاق ممن تأثروا تأثراً كبيراً بمبادىء الثورة الفرنسية.

وربما كانت مصر من أكثر الشعوب الشرقية تأثراً بتلك المبادىء عن طريق الحملة الفرنسية وعن طريق البعثات.

ولكن من أكثر روّاد القرن الماضي تأثراً بها هو عبد الرحمن الكواكبي. وقد عرض في كتابه (طبائع الاستبداد) لذكر طُرُق الإصلاح في نظره، ويعرض لأثر الاستبداد في إفساد الأخلاق مُبيّناً أن الإنسان يمتاز بالإرادة، والاستبداد يُفقده الإرادة، ويُبيِّن الحكمة في احتمال ما في الحرية من مضار فيُرجع تلك الحكمة إلى حرية النقد وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه، ثم عرض لأثر الاستبداد في إفساد الدين من زاوية الأخلاق فيصبح الدين عبادات مُجردة عن معانيها ونظريات بعيدة عن التطبيق، ومن هنا كان أثره واضحاً في إفساد التربية أيضاً ومُنعكساً على كل عمّال الدولة ومُوظفيها.. وختم هذه المشاكل بالمشكلة الكبرى وهي كيف نتخلص من الاستبداد؟ فقال: «إن الأمة التي ضُربت عليها الذِلّة والمسكنة لا تُسأل عن الحرية قط. وقد تنقم على المستبد، ولكن طلباً للانتقام من شخصه لا طلباً للخلاص من الاستبداد فلا تستفيد شيئاً، إنما تستبدل مرضاً بمرض. وقد تُقاوم المستبد بسوق مستبد آخر.. إن الوسيلة الوحيدة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والإحساس. وهذا لا يتأتّى إلاّ بالتعليم والتحميس كما أن إقناع الفكر العام وإذعانه إلى غير مألوفه لا يتأتّى إلاّ في زمن طويل..».

وهناك علم قد ملأ الأسماع وهو علم الإصلاح الاجتماعي والديني والشيخ محمد عبده هو من أعلام هذه الفترة وكان محمد عبده على عكس أستاذه جمال الدين هادىء الطبع.. وكان يرى أن السبيل المُترقي أفضل من الطفرة، والإصلاح الاجتماعي والثقافي هما السبيل إلى الإصلاح السياسي، بعد أن يُدرك الشعب المُثقف الواعي حقوقه.

اكتوى محمد عبده بنار السياسة بعد اشتراكه في الثورة العُرابية ونفيه. فلمّا عاد فضّل الميادين التي خُلق لها. عمل على إصلاح الأزهر بإدخال العلوم الحديثة وتطوير برامجه ولقي المتاعب من أُولي الأمر من شيوخ الأزهر أنفسهم. وعمل في منصب الإفتاء على فتح باب الاجتهاد بحيث يكون التطابق بين التفسير للنصوص الدينية وبين روح العصر الحديث، وتلك أيضاً أثارت عليه ثائرة الجاحدين.

كان يعقد ندوات لُمريديه وتلاميذه مثل أستاذه جمال الدين، وكان يتحدث عن الإصلاح الديني ووجوب التحرر من الجمود، وكان يتحدث عن الإصلاح الاجتماعي وأهمية الثقافة وخاصة بالنسبة للنساء بعد أن ضرب بينهم وبين العلم بستار لا يدري أحد متى يرفع عنهن.

كان محمد عبده يُلقي دروسه وهو جالس بطلعته الوسيمة المهيبة، تتوقد فيها عينان نفّاذتان، على قامة معتدلة لا إلى البدانة ولا إلى الخمول، أبيض اللون إلى سمرة، شائع الشيب في رأسه ولحيته قبل أوان الشيب سليم الجسد مكين البنيان، وقد سرت روح محمد عبده في مُعاصريه وفي الذين خلفوه على دعوته من تلاميذه وأتباعه. فأخذ عبد الله النديم يوالي نشر مقالاته في مجلة الأستاذ في سنين ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣، داعياً إلى إقامة نهضتنا على أساس الإسلام وأخذ يُهاجم الجامدين من رجال الدين والجهّال من خطباء المساجد الذين يدعون الناس للزُهد في الدنيا. وقد نادى عبد الله النديم لتكوين مجمع للّغة العربية وبضرورة توحيد التعليم ومزج الديني منه بالمَدَني حتى يكون رجل الدين واحداً من الناس ولكي يخرج عمّا أخلد إليه من الانكماش والتحاشي عن خوض السياسة لجهله بأدواتها.

وكان هناك كفاح بين كتّاب من الغرب وآخرين من الشرق. ردّ

محمد عبده على هانوتو، ومن قبل ردّ جمال الدين الأفغاني على رينان وألّف دوق داركور كتابه عن مصر والمصريين الذي ملأه بالمطاعن على الإسلام والمسلمين وردّ عليه قاسم أمين في كتابه الذي ألّفه بالفرنسية عن المصريين، ردّ فيه على كل هذه المطاعن. وهكذا امتلأت قصة العصر بالأحداث، أحداث الثورة وأحداث الإصلاح وكانت تتتابع فصول القصة وعلى رؤوس بعض فصولها أسماء جمال الدين الأفغاني المُصلح السياسي والاجتماعي، ومحمد عبده المُصلح الديني وعبد الله النديم البطل الذي لم تنل منه الشدائد والكواكبي المُصلح السياسي، وأديب إسحاق صاحب الدعوة لمجانية التعليم وعاشق الحرية، ولكن الفصل الأخير من تلك القصة بقي حتى كتبه قاسم أمين مُحرِّر المرأة عام ١٨٩٩ .

الجـذور

وُلد قاسم أمين لأب تركي وأُم مصرية عام ١٨٦٣، والده محمد أمين من أُسرة تركية عريقة متوسطة الثراء، تولّى بعض أفراد أُسرتـه السليمانية من أعمال العراق وبقوا كذلك ردحاً من الزمن. .

أكبَّ الأب على دراسة القانون وتولّى كردستان، وأنجب ولده قاسم أمين من زوجته المصرية وكذلك ابنه الثاني إبراهيم. . وعنـدما كـان محمد بك أمين في زيارة لتركيا مع زوجته وابنيه، وطالت زيارته بعض الشيء، ثارت كردستان وكانت ثورة عنيفة أُريقت فيها دماء كثيرة، ولكنها استطاعت أن تتحرر وتستقل في النهاية. وكان هذا الاستقلال هو أول درس حي أخذه الفتى الصغـير قاسم أمـين وهو أن تصميم الشعوب، بل تصميم الأفراد لا بد أن يُكلّل بالنجاح ما دام مبنياً على الحق والامتناع.

وقد كُرّم محمد بك أمين من بلدته فمنحته بعض الإقطاعيـات في مصر ـ نواحي دمنهور ـ فرحل مع أُسرته إلى مصر ليُقيم فيها نهائياً.

ورجع قاسم أمين إلى أحضان الشاطىء الذي وُلِد على ضفافه كان في الثامنة من عمره حمل هدوء البحر في ظاهره وصخبه الباطن. لقد ورث الهدوء من أُمه المصرية وسرعة الانفعال ورثه عن أبيه التركي.

درس في مدرسة رأس التين وكان يدرس بها أبناء الأتراك وأثرياء

المصريين، ثم انتقل به أبوه إلى القاهرة واستقرّ بها نهائياً وسكن حي الحلمية.

كان قاسم مفرط الذكاء واسع الاطلاع على كل العلوم، فقد جذبه الأدب لأن في أعماقه نفساً شاعرة، وجذبه التاريخ ليعرف ماضي بلده وحاضره، وجذبته كتب الدين لأنه عاش في عصر الجامعة الإسلامية، وجذبه القانون وكتبه التي وجدها في مكتبة أبيه.

ولكن استقرّ رأيه على دراسة القانون فكان من أول الناجحين في شهادة الليسانس عام ١٨٨١، وعمل لدى المحامي مصطفى فهمي وهو صديق لوالده، وأحبّ المحامي الفتى الذكي وكان لا يكاد يُفارقه في روحاته وغدواته.. ولكن قاسم لم يكن يُبادله نفس الحب، كان يحترمه لصلته بوالده ولعلمه، ولكنه كان يبغض فيه قسوته ووطنبته الزائفة.

وكان الفتى وطنياً مُتحمساً شأن الشباب المُثقف في ذلك الوقت وقد كان واحداً من تلك الحلقة الذهبية التي أحاطت بجمال الدين الأفغاني، والتقى هناك بمحمد عبده وسعد زغلول ومحمد فتحي زغلول وعبد الله النديم وأديب إسحٰق وغيرهم.

وأُشرب الفتى تعاليم أستاذه عن الوطنية وعن الجامعة الإسلامية وعن تنقية الدين من المُفتريات وتحمس لذلك، وكان العصر هو عصر إسماعيل، وكان الجشع وجنون العظمة منه ومن المُحيطين به قد أدّى إلى إفقار الشعب وبؤسه، وكان جمال الدين الأفغاني وتلاميذه يحملون المعاول لهدم هذا الطُغيان.

وبدأت العيون تتفتح وتنقشع الرؤيا أمامها فبدأ جمال الدين وأتباعه يخطبون ويكتبون، وأحسّ الشعب وقتها أن باستطاعته أن يُوقف الظلم

وقد استطاع فعلاً أن يجبر إسماعيل على التنازل في يونيو عام ١٨٧٩ ، وتولّى توفيق الحكم بعد أن وعد جمال الدين وأكد له أن كل أمله أن يُحقق برامج الإصلاح في مصر، ولكنه لم يكد يعتلي العرش حتى وجد نفسه مشدوداً إلى قوة القناصل الأوروبيين التي منعته من أن يتنازل عن شيء من سلطته لأنهم يريدون استغلالها باسمه.

وعندما رفض أن يُوقع قائمة الإصلاح التي تقدّم بها رئيس الوزراء شريف باشا لم يكن أمامه سوى الاستقالة. وعندما أحسّ الخديوي بأن حزب الإصلاح يمثل خطراً عليه قبض على رئيسه جمال الدين الأفغاني في أغسطس عام ١٨٧٩ ونُفي من البلاد.

ووقفت مصر تحاول المقاومة من جديد وكان للجيش دوراً هاماً على مسرح الحياة ومن خلفه وقفت الأمّة، فكانت حركة أول فبراير عام ١٨٨١ ، وترأس عُرابي هـذه الحركـة فطبـع منشوراً للشعب المصري بكافّة طبقاته لينضم إلى الثورة للتخلص من الظلم والاستبداد الذي أتلف حياتهم..

«إن الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم، ولم يكن مقصدها مؤدياً إلاّ إلى اضمحلال البلاد وتلاشيها، بما هو جارٍ من بيع أراضٍ كثيرة للأجانب، ووجود كثير منهم في إدارات الحكومة ومصـالحها بـالرواتب الفـادحة، والسعي في رفـع الأحجار الطبيعية الموجودة في بوغاز الاسكندرية، وإن سكوتنا وإضرابنـا عن ذلك يُعد من العجز والجبن والتفريط في وطننا ومقر نشأتنا. فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المُتنظمين في سلك الجهادية قد اتكلوا على الباري سبحانه وتعالى، وعزموا على منع كل ما من شأنه الإجحاف بحقوقكم، وذلك لا يتم إلاّ بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس

النوّاب، ليحصل الوطن على الحرية المُبتغاة. فالمطلوب منكم أن تُوقعوا على الكتابة المُرسلة إليكم في ضمن هذه النشرة. والكتابة المقصودة بها أن أكون نائباً عنكم في كل ما يتعلّق بأحوال البلاد ـ أحمد عُرابي»[1].

وأصبح عُرابي زعيم الأمة بعد أن بـايعه وفـود الأعيان والمشـايخ والفلاحين وانضمّ إليه الزعماء السياسيون وتلاقت الأهداف، ووحّد الأهالي والعسكريون كلمتهم فكَونـوا حزبـاً واحداً أطلق عليـه اسم «الحزب الوطني» وكثيراً ما أطلق عليه اسم «حزب الفلاحين».

وفي هذه الفترة بدأت مرحلة جديدة من حياة قاسم أمين فقد رحل عن مصر إلى فرنسا ليُتم تعليمه في بعثة للدراسة. وهناك انـتـظم في جامعة (مونبلييه).. وبعد دراسة استمـرت فيها أربـع سنوات أنهى دراسته القانونية بتفوق في سنة ١٨٨٥ م.

وفي فرنسا قرأ قاسم أمين لمُفكري أوربا الكبار، منهم نيتشه وداروين وماركس.

وهناك حاول الاقتراب من المجتمع وإقامة الصلات الوثيقة مع نمط حياة الفرنسيين الاجتماعي.. غـير أن طبيعته الخجـولة لم تمكنـه من الذهاب بعيداً في هذا المضمار.

وحيث وجد هناك الحب والصداقة، وحيث نمى الحب بينـه وبين صديقته الفرنسية (سلافا) وقد ظلّ هذا الحب رومانسياً وكانَ له الآثار الكبيرة على قاسم أمين بأن تتولّد في نفسه المشاعر النبيلة نحو المرأة، وتلك الأحلام الوردية التي بدأت وظلّت تُراوده عن قيامها بدور الوحي والمساعد في حياة الرجل ومن ثم المجتمع.

---

(١) مصر للمصريين لسليم خليل نقّاش جزء ٤ ص ٩٠.

«. . . يضم المجتمع الأوربي الرجال والنساء دائماً فيسهل الاتصال بينهم، وتنشأ فيما بينهم علاقات إلفة وصداقة وحب، وهذا الاختلاط بين الجنسين في الاجتماعات يسبغ عليها عذوبة ورقة، فالسحر الذي تشيعه المرأة في كل مكان توجد فيه شيء ممتع ونفاذ كعطر الزهور. وفي مثل هذه الاجتماعات ينعم المرء دائماً بالمرح وغالباً ما يتودد للغير، ويخرج في النهاية مفعم القلب بالرضا!»[1].

ويستطرد متحدثاً عن تجربته الذاتية مع هذا النمط من الحفلات الباريسية فيقول: «. . . وقد أتيح لي تقييم هذا السحر الفريد، وكان شأني شأن الآخرين في الإحساس بقدره، وخاصة وجود امرأة تجمع حصافة الفكر إلى جمال الجسد. وقد رمت بي طبيعتي الخجولة بين الاضطراب والحيرة أكثر من مرة، وهذا يعني أنني لم أحقق نجاحاً في هذه المجتمعات، غير أن هذا لم يقلل من حبي لهذه اللقاءات الشيقة التي يهتم فيها الجميع بخلق جو البهجة والاستمتاع به»[2].

وفي صيف سنة ١٨٨٥ عاد قاسم أمين إلى القاهرة وذلك بعد أن عمل هناك مع أستاذه «لرنود» ـ بعد التخرج ـ عدّة شهور.

وصدر قرار تعيينه بالقضاء عام ١٨٨٥ م أول ديسمبر في النيابة المختلطة. . فبدأ طريقه لتحقيق طموحه، وخاصة ما يتعلق منه بإثبات جدارة المصري ونديته للأوربي في تولي الوظائف العامة والنهوض بأعبائها. .» وبوجه أخص في حقل خلق مؤسسة قضائية وطنية تكون موضوع ثقة المقيمين بمصر أجانب ومصريين على السواء.

وفي سنة ١٨٨٧ نقل من النيابة المختلطة إلى قسم قضايا الحكومة.

---

(١) تحرير المرأة.

(٢) تحرير المرأة.

ثم رُقي في عــام ١٨٨٩ إلى منصب رئيس نيابــة بني ســويف في مصر. .

وهناك بدأ يُطبِّق بعض مفاهيمه وآرائه في فلسفة العقاب ودوره في الإصلاح الاجتماعي، وبدأ يُحاول التوفيق بين عمله كرئيس نيابة وبين ما تدعوه إليه الوطنية وحبه ووفاءه لمدرسة الأفغاني.

وفي عام ١٨٩٢ عيِّن قاسم أمين نائب قاضٍ في محكمة الاستئناف ثم رقي بعـد عامـين إلى منصب مُستشار، وكـان يومئـذٍ في الحاديـة والثلاثين من عمره.

يقول عنه الدكتور محمد حسنين هيكل: لقد كانت روح قاسم أمين روح أديب. . فكانت الروح العصبية الحسّاسة الثائرة، التي لا تعرف الطمأنينة ولا تستريـح إلى السكون، وكـانت الروح المُشوِّقة التي لا تعرف الانزواء في كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها ما في حياة الكون وحركته من نشاط وجمال. بل كانت عيـونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتُطبع على صفحات نفسه وحياً وإلهاماً أكثر ممّا تؤدي إليها المباحث الجافّة منطقاً وجدلاً.

وكانت هذه المناظر تُذكي شعوره الحسّاس بجمال الحياة، وتدعوه إلى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المَتاع، وذلك لا يؤتاه إلاّ رجل فـن جميل لا يقف عن التلذذ لنفسه بنعم الحياة، بل يُعبّر لغيره عن معاني هذه النعم»[1].

---

(١) تراجم مصرية وغربية ص ١٥٣.

قاسم أمين الأديب

من أهم ما كتب قاسم أمين هو الدفاع عن المرأة وحقوقها ولكنه بالإضافة إلى ذلك كان من أكبر المُصلحين الذين ظهروا في أوائل القرن العشرين، وليس دفاعه عن المرأة إلاّ شعبة من آرائه في الحرية والتّربية واللغة وسائر وجهات الإصلاح.

وقد ظهر في أعقاب القرن الماضي قوم قليلون من أمثال قاسم أمين لكنهم لم يلقوا مثل ما لقي من العنت والسُّخرية والاستهزاء، وقد استعدى عليه المُتعصبين من أصحاب الدين وأنصاف المُتعلّمين من أصحاب العلم. وقليل أولئك الذين فهموا تلك النفس الحسّاسة التي تؤمن بالحرية إيمانها بنعيم الحياة. وكثيرون أحسُّوا مثل إحساسه بما كانت ترسف فيه المرأة المصرية من أغلال. ولكن أحداً من هؤلاء لم يؤتَ من شجاعة النفس ما استطاع أن يصمد به للمهاترين والمُغالين ممن أعمتهم التقاليد.

وقاسم أمين يتميّز بتلك النفس الحسّاسة التي تجيش بمختلف العواطف، فقد أُوتي الكمال من الحسّ الدقيق والشعور المُرهف، (وهو من أول المصريين الذين اعترفوا بأن النفس جماع لمختلف العواطف والمشاعر والوجدانات إلى غير ذلك مما يتصل بالدراسات الحديثة في علم النفس. وربما كان قاسم أمين أحد المُصلحين العالميين الذين اهتدوا إلى تلك النتائج قبل أن يتعمّق الناس في دراسة علم النفس. فهو يعترف بأن الإنسان مجموعة من الأعصاب تأثرت بالبيئة التي يعيش فيها، وأن

القَلب الذي يكن البغض هو نفسه الذي يكنّ الحب، وأن النفس الشريرة تنمو ـ إذا نمت ـ لانها تجد جواً صالحاً يؤثر فيها)[1].

وقد كان من الصعب على البيئة التي نشأ فيها قاسم أمين أن تعترف له بالفضل لهذه النتائج القيّمة التي توصل إليها لكونها بيئة نصف متعلّمة ونصف دينية. فكانت تأخذ من العلم القشور ومن الدين النفاق والجدل، لذلك لم يستطع أنصاف المُتعلّمين أن يعترفوا بالغرائز الفطرية عند الإنسان. ولم يحاول أنصاف المُتدينين أن يتبصرّوا الحالة التي توصل إليها الدين من انحدار في ذلك الوقت. فكانت الحملة الشعواء على قاسم أمين.

وكان لحياة قاسم أمين في أوروبا الأثر الأكبر على فكره وأدبه فقد رأى قاسم أمين هناك المرأة الأوروبية ممثّلة لا في حقوقها السياسية ولا في مبلغ احترام الجماعة لها فحسب بل رآها ممثلة أيضاً في صميم الفلسفة الأفلاطونية التي ورثتها أوروبا قديماً عن أفلاطون وحديثاً عن الأفلاطونية الحديثة.

وقد كان يؤمن أن النفس جماع العواطف والوجدانات فقد قال إن «الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان في جميع أدوار حياته. فتارة يخضع للاولى وتارة تتغلّب عليه الثانية. ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم أن يكون آمناً من السقوط يوماً في الرذيلة، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة إلاّ وفيه استعداد لأن يأتي يوماً بأفضل الأعمال».

«وحقيقة الأمر أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً يتم دفعة واحدة،

---

(١) قاسم أمين تاريخ حياته الفكري/ أحمد خاكي.

وليس لها حد تقف عنده، إنما هي في تحليل وتركيب في تكوّن مستمر يعتريها الأغلال زمناً وتعود بعده إلى التماسك».

وقد كانت آراؤه في إقامة معيار يقيس به رغبات الرجال ونزعاتهم هي بداية تكشف لنا مدى فهمه للنفس البشرية وكأنه كان يتنبأ بكشوف علم النفس الحديث فقد قال: «إن الإنسان أسير الشهوات ما دام حياً، وإنما تختلف شهواته باختلاف سِنّه، فشهوة اللعب عند الطفل، وشهوة الحب عند الشاب، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين، وشهوة السلطة عن شيخ الستين، جميعها شهوات تُعرِّض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا».

حتى إن نظرته النفسية قد أثّرت على عمله كونه كان قاضياً فقد كان في كثير من الأحيان يعكس نظرياته على الحالات التي تُصادفه، فكان يرى أن المجرم مُسيّراً أكثر مما يكون مُخيّراً، وأنه «لا بد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هي العفو عن الخطيئة ـ العفو عن أكبر خطيئة، العفو عن كل خطيئة».

«هل المخطىء مسؤول أو غير مسؤول؟ وما هي درجة مسؤوليته؟ مسألة عظيمة يجب على مَن يريد الحكم على غيره أن يحلها. لكن حلّها يكاد يكون مُحالاً، إذ لا يستطيع أحد أن يلمّ بجميع العوامل التي تتركب منها الذات الإنسانية بوجهها الأدبي والمادي، والقليل الذي يعلمه من ذلك يُبينّ أن سلطة الإرادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتفارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى تقديره عقلنا. وكل تاريخ الإنسان في الماضي يدل على أنه إن لم يكن مُتولّداً عن الحيوان المُفترس مباشرة فهو مُشابه له في شرّه وأطماعه وشهواته. خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم..

خُلقٍ على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضاً مؤقتاً».

«فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه، هي الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الإنسان. هي الميراث الذي تركه آدم وحوّاء لأولادهما التُعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المُحرمة.. من ذلك اليوم البعيد لوّثت الخطيئة طبيعتهما، وانتقلت منهما إلى ذريتهما جيلاً بعد جيل. ذلك هو الحمل الثقيل الذي تئن تحته أرواحنا المُلتهبة شوقاً إلى الفضيلة».

«وأخيراً، فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لإصلاح المُذنب، فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين إذا هي عولجت».

(وإذا أنتَ نثرتَ بين يديك كل ما قيل عن تنازع الغرائز، وإذا أنتَ نشدتَ فكرة تأخذ بجماع الغرض الأسمى للتربية، لم تجد تصويراً أدق مما توسمه قاسم أمين في تلك الكلمات. كل كلمة تنضح من ينبوع من الحكمة والحب، وكل فقرة تجبهك بحقيقة من الحقائق التي يعيها رجال التربية قبل أن يعيها الآخرون. وإنما النفس الحسّاسة التي تمتلىء رحمة وحناناً هي التي شعرت بكل ذلك. أليس القاضي هو الذي يستطيع أن يبلغ بإحساسه إلى مستسر النفس ويتعمق بشعوره إلى أطوائها؟ ألا إنه كان قاضياً فذّاً ذلك الذي استطاع أن يُوفق بين العفو وبين العدل. فيشعر بنواحي الضعف البشري كما يشعر بها شاعر مثل شكسبير ثم لا يمنعه ذلك من أن تجري أحكامه بقسطاس مستقيم)[1].

وكان قاسم أمين في كل كُتبه يستروح نفحة نقيّة من الأدب ويتهدّى

(١) أحمد خاكي / قاسم أمين تاريخ حياته الفكرية.

بشعور عميق في الفن، وإنما قوام الفن تلك الحساسية الجريئة لديه التي تشفق على المجرم، وترى الغرائز الدُنيا مصطخبة مع الأفكار العُليا. إنها نفس حسّاسة تلك التي تستجيب لكل الآثار التي تلقّاها، وهي هي نفس المتفنن الأديب.

فقاسم أمين كان أحد الذين انفعلوا لآثار البيئة التي عاشوا فيها، ثم أعطوا بعد ذلك أضعاف ما أخذوا.

وما كتابته إلّا صورة واضحة لنواحٍ كثيرة من حياة الجيل السالف بأسلوب حسن..

ها هو يصف حال صاحب المعاش الذي أُخرج من عمله وهو في أوج عطائه يقول:

«ترك الحكومة ـ أو تركته الحكومة ـ وهو أكثر ما يكون في الغالب متمتعاً بقواه البدنية العقلية، وسواء كان معاشه كافياً لاقتضاء لوازم معيشته أو غير كاف وسواء كان غنياً في حد ذاته أو فقيراً، تراه دائماً كثيف البال آسفاً على وظيفته أسفاً شديداً، لأنه يظن ـ كما اعتاد أهل بلادنا أن يعتقدوا ـ أن الإنسان قليل بنفسه كثير بوظيفته! . ولأنه يُشاهد دائماً أن الواحد عندما يكون في وظيفة عالية يُحترم ويُجل مقامه ويُزار وتتزاحم العربات والبغال عنده، والحمير على باب منزله، الذي يكون مزهراً بهجاً تُحييه حركة مستمرة وتحفّ به مياه طيبة، فإذا أُحيل على المعاش انقضى كل ذلك وأصبح هذا الشخص بذاته مُهملاً مهجوراً بل ومندهشاً: كمَن رأى رؤية مُفرحة واستيقظ من نومه فجأة»[1].

---

(١) صاحب المعاش/ أخلاق ومواعظ قاسم أمين.

ومرة أخرى يكتب عن متطفل دخل على صاحب دار كان قد دعا ستة أو سبعة من أصدقائه إلى الأكل فيصفه قاسم أمين «فاضطر صاحب المنزل إلى أن يدعوه للأكل معنا، فدخل أمامنا واختار لنفسه أحسن مكان، وكان أول الجالسين. جلس على الكرسي القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله، ثم برم كم القفطان والقميص الذي تحته برماً محكماً فانكشف الساعدَ إلى المرفق فتخيل لي جالساً في مكان الميضأة يستعد للوضوء. اشتغل بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث. ولّما كان بعيداً عن المائدة كان كلما يتناول شيئاً من الطعام يسقط بعضه على ملابسه. وكان يلقي العظام في فرش المائدة فلمّا امتلأ بطنه أخذ ينكس أسنانه ويُخرج منها فضلات الأكل فيقذفها من فيه بقوة يميناً وشمالاً».

وهو في كل ما يصف شاعر بالجذل الذي يملك نفس الروائي وهو يقول في ذلك:

«يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية، والعاقل يكتفي بما يراه حوله ويسمعه. يتفرج مجاناً على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين».

وشيء آخر شارك قاسم أمين فيه أهل الفن والأدب، ذلك هو الشعور بالجمال..

كان خياله سخياً لدناً، اتسع لألوان كثيرة من الجمال، وقد حاول أن يسبغه على الغرائز الدُنيا التي اعترف بها. فهو إذا اعترف بأن الإنسان يُولد شريراً، فلقد ذهب إلى أن الغريزة قد يستعلى بها إلى المكان الأسمى. وهو قد كان يؤمن بأن «أعظم ما يُصاب به المرء أن يُحرم من الذوق السليم» وبأن «الذوق السليم هو الإحساس الفطري الذي ينمو ويتهذب بالتربية، هو الشعاع اللطيف الذي يهدي صاحبه إلى أن يقول

ويفعل ما يُناسب المقام».

وكأنما أُلهمت تلك النفس الحسّاسة حب الجمال إلهاماً، وكأنما استشرفت لما تندفع به نفس الإنسان من عواطف نبيلة كما اطلعت على ما يتدفق في أغوارها من غرائز وشهوات. والحق أن باحثاً يدرك الشر لا بد أن يرى ناحية الخير ناصعة بريئة. وقد داول هو البحث بين الخير والشر، فأقام لآرائه حدود إجمالية نرى أن الجماعة المصرية لما تأخذ بنصيب وافٍ منها بعد. فهو قد كان يرى أن «أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة: التمثيل، والتصوير، والموسيقى، وإن هذه الفنون ترمي جميعها على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الجمال والكمال، فإهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور»[1].

وما كانت فكرته عن المرأة إلاّ شعبة من هذه الفكرة الجمالية التي ملكت تفكيره. ولم يقتصر تفكيره بالمرأة على النظرة التي لا تعترف إلاّ بالغريزة الدُنيا كما كان تفكير أكثر العرب لتأثرهم بأشعار الغزل في الأدب العربي، بل لقد تأثر قاسم أمين بالفكرة السامية عن المرأة وكانت نفسه حسّاسة شاعرة، ويحسبه أنه أول مصري تكلم عن الحب في صراحة المخلص المستنير. ويحسبه أنه أول مُصلح تكلم عن العلاقة بين الرجل والمرأة فبناها على هذا الأساس الفضيل الذي يعقد ما بينهما ويُوثق أواصر المودة والرحمة بين اثنين يعيشان تحت سقف واحد. وعلى هذه الفكرة السامية قامت كل كتاباته في الإصلاح الاجتماعي، لأنه أراد أن يُحوِّل اتجاه البيئة التي هو فيها إلى الوجهة السامية التي امتنع بالفضيلة منها.

(١) أحمد خاكي/ قاسم أمين تاريخ حياته الفكري. ص ٣٧.

«لا شيء يشبه العشق في عنفوان نشأته» هكذا قال قاسم أمين، ويقول أيضاً إنه كلما أراد أن يتمثل السعادة تمثلت أمامه في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل، فهو بذلك قد أحسّ بهذه الفكرة المعنوية عن المرأة.

وقد وصف قاسم أمين مرة الرجل المتعلِّم في كلمات إنما تنطبق تماماً على قاسم أمين نفسه:

«الرجل المتعلِّم يحب النظام والتنسيق في منزله، وله ذوق مهذَّب يميل إلى الأشغال اللطيفة، والإحساسات الدقيقة، والالتفاتات الرقيقة، ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الأفراد حداً ينتهي إلى إهمال الأمور المادية.

يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالإشارة. يسكت في أوقات ويتكلم في أخرى ويضحك في غيرها. له أفكار يحبها، ومذهب يشغله، وجمعية يخدمها، ووطن يعزّه، له لذائذ وآلام معنوية، فيبكي مع الفقير، ويحزن مع المظلوم، ويفرح بالخير للناس. وفي كل فكرة تتولّد في ذهنه وإحساس يؤثر على أعصابه، يود أن يجد بجانبه إنساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه».

«المصريون» لقاسم أمين، وردّه على كتاب الدوق داركور

كتب (الدوق داركور) وهو من الفرنسيين الذين اعتادوا أن يزوروا مصر، كتاباً في سنة ١٨٩٣ يجمل فيه آراءه عن مصر والمصريين.

وكان كتابه سلسلة من المطاعن القاسية.. وقد تناول فيه الجماعة المصرية من أحط نواحيها، ولم يكن الباعث لديه الإخلاص أو المروءة طبعاً. أما قاسم أمين فما لبث أن قرأ الكتاب حتى قام بالرد على هذه المطاعن، بأن ألّف كتاباً باللغة الفرنسية في الشهور الأخيرة من سنة ١٨٩٣، وأخرجه للناس في سنة ١٨٩٤.

فماذا جاء في كتاب الدوق وما هي وجهة نظره عن مصر وهل سيتحدث عن الروح التي بدأت تسترد حماستها؟.. ثم ما كان رد قاسم أمين وما هي المقومات التي اعتمدها بالرد على الدوق؟..

أول ما لاحظه الدوق داركور ضعف الروح الوطنية المصرية بمعناها الإقليمي، فقد كانت هناك روح إسلامية عامة، ولكنه لم يستطع فهم فكرة الجامعة الإسلامية، فكان اتهامه لمصر بأنها لا تتمتع بخلق قومي أو عنصري واضح. وأخذ يُوضح فكرته بأن المجد الفرعوني القديم لم يعد له أثر بعد أن توالت على مصر عصور وعصور من الاستبداد والحكم الأجنبي، وخاصة حكم المماليك الذي قضى على بقايا من النهضة القومية خلال حكمهم الذي استمرّ خمسة قرون. فقد كوّنوا طبقة حاكمة لا همَّ لها إلاّ الثراء على حساب الشعب، ومن هنا كانت

الفجوة بين الحكّام والمحكومين تلك التي استمرت حتى أيام إسماعيل ولقي الناس فيها ما لقوا من إسرافه وترفعه.

والجانب الأكبر من الشعب فلاحون يعيشون أدنى حياة ويسخرون من أجل سيد الأرض وما وصل إليه الفلاح المصري من الفقر والذل أشد مما وصل إليه العبيد في أتعس الأوقات. فكيف يمكن سريان روح قومية بين الشعب المصري وهو فاقد لمقوماتها؟..

وينتهي الدوق من الفصل الأول ليتناول بعد ذلك الحديث عن الجيش المصري. فيبدأ الحديث عن تهاون المصريين في التربية العسكرية، التي ليس لهم عهد طويل بها. فهم زراعيون مُرتبطون بالأرض أو بالشريط الزراعي الضيّق على ضفتي الوادي فضاقت آمالهم وفقدوا روح المغامرة. أما حروب محمد علي فكانت موقوتة بانتصاراته، ضعف بعدها الجيش والروح الحربية كما وهنت كل حماسة بحيث أصبح انتصار الانجليز عليه سهلاً محققاً..

ثم يصل إلى الفصل الثالث حيث يتناول الحياة الاجتماعية، فإذا هو ينتقد الطبقات الاجتماعية فيها انتقاداً عجيباً، فهو لا ينتقد الفرد من بين الطبقات ولكنه يلحظ تميع هذه الطبقات في مصر، وكأن ارستقراطيته لم تعد تسمح له إلاّ أن يفكر على هذا النحو، فالمجتمع الذي لا يستقيم عنده إلاّ بوجود طبقات اجتماعية متميزة مثلما رأى في بلده حيث تؤدي كل طبقة واجبات خاصة بها. ومن الغريب أن الأسرة مفككة في أوروبا التي لم يعد هناك من رابط بينها أقوى من المال الموروث أو الألقاب الموروثة هي المثل الأعلى عنده، أما الأسرة المصرية فهي ضعيفة الصلات أضعفها الطلاق وتعدّد الزوجات.

ويتناول في الفصلين الرابع والخامس مشكلة الأقليّات في مصر مع

وضع الأتراك تناولاً سريعاً، ثم يصل إلى الفصل السادس فيقف وقفة طويلة أمام المرأة ووضعها الاجتماعي. فهو قد لاحظ في تجواله أن المرأة محجبة وأن هذا الحجاب شائع في كل الطبقات، وفن العمارة رغم محاولة تطويره لم يمس فكرة الحريم، فهناك قسم خاص بهن وقسم خاص بالرجال، والمشربيات التي تستر المرأة ولا تسمح برؤيتها أشبه بحجاب من خلف حجاب، حجاب عن العالم وعن العلم معاً.

وحاول أن يُفسِّر أسباب الحجاب، فأرجعها جميعاً إلى الخوف، خوف المحكوم من الحاكم، وخوف القوي من الضعيف. ثم يتعثر في تفسيره فيُهاجم الإسلام الذي تدخل في كل العادات الشخصية للمسلمين، فهو في رأيه الذي أمر بذلك الحجاب وكان سبباً جوهرياً من أسباب استمراره على هذا النحو، وحينما تحجبت المرأة انعزلت عن الحياة، وعاشت في جو من الأوهام والخرافات ملأت بها عقول أبنائها، ولم تعد تعيش إلاّ للغرائز، فهي لا تكاد تختلف عن المرأة التي صورتها «ألف ليلة وليلة».

أما المرأة الأوروبية فتتنفس في جو آخر نقي، يدفعها إلى العمل وإلى العلم وإلى الحرية، كل ذلك أبعدها عن الرذائل وهيأها لأن تشارك الرجل في كل أمر من أمور الحياة. هذا هو كتاب الدوق داركور إنه هجوم صريح يمس المصريين وعاداتهم ودينهم[1].

فماذا كان موقف قاسم أمين وكيف كان رده على كتاب الدوق؟..

قاسم أمين كان مؤمناً برقي العنصر المصري، وسمو الدين الإسلامي في أصوله الأولى، فحاول أن يُدافع عن أهل وطنه ودينه، وأن يرد على

---

(١) ماهر حسن فهمي/ قاسم أمين ص ١٠٥.

المثالب التي اختلقها الدوق الفرنسي. .

يقول قاسم واصفاً مشاعره عند قراءة الكتاب: «لقد وجدت فيه من القسوة ما زاد على كل حد. وكادت تنتزع قراءتي إيّاه كل آمالي. ثم عادت نفسي فاطمأنت رويداً رويداً، ففكرت طويلاً في كل ما قال عنّا. بحثت كل المسائل التي بسطها وكل الأحكام التي انتهى إليها، وسلخت نفسي من شخصيتي المزدوجة بوصف أنني مسلم ومصري، فحلّلت الموقف من غير ميل ولا هوى مسترشداً في ذلك بالحق وحده. ولذلك فقد عبّرت عن عواطفي هنا كما يفعل الغريب الذي يعلم من أمر مصر ما أعلم ويحكم عليها بلا تحيز».

وكان رد قاسم أمين صورة من صور الكفاح بين الشرق والغرب، فالدوق الفرنسي كان متشبعاً بجملة من الآراء التي قيّدها بعض المفكرين الغربيين في القرن التاسع عشر مثل «رينان». . ولقد قام كثير من المُصلحين في أواخر القرن التاسع عشر ينتقدون النُظُم القائمة بمصر مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الله النديم وغيرهم، ولكنهم لم يبنوا نقدهم على أساس ازدراء العنصر المصري أو مُهاجمة الإسلام بل على العكس كان نقدهم موجهاً منصفاً، من أجل رقي مصر ونهضة المسلمين، وكان أكثر ما أثار قاسم أمين، ذلك التعصب الأعمى في الكتاب كله.

ويبدأ قاسم رده على الدوق وهو مؤمن بمبدأ التقدم وأن هذا التقدم قد يتعثر في بعض الأخطار، ولكنه في النهاية لا بد أن يتغلب عليه. فإذا كانت مصر لا تزال في أول الطريق، فقد مرّت فرنسا بنفس الطريق من قبل لكن الجهل والفقر لم يقفا حجر عثرة في سبيل تطور الفرنسيين. كان الزرّاع عبيداً للأرض يُباعون معها ويُشرون وكان الإقطاعيون

يسومونهم ألواناً من العذاب لم تخطر على بال أمير شرقي، ويتحكمون في الفلاحين تحكم المرء في سلعة يمتلكها، يتحكمون في زواجهم وفي رزقهم وفي أرواحهم [. . .] فما بال الدوق الفرنسي ينسى ذلك الماضي البغيض ولا يذكر إلّا حاضر بلاده بعد أن تخلصت من آثار ذلك الماضي، ومصر لا تزال في أول طريق النهضة ولن تمنعها أخطاء الماضي من التقدم.

ثم ينتقل قاسم إلى الفصل الثاني فيتحدث عن المجتمع المصري وعن ذوبان الطبقات فيه كما لاحظ ذلك الدوق داركور آخر القرن الماضي. ويجد الفرصة سانحة أمامه ليعرض للإسلام عرضاً سليماً يوضح جوانب القوة التي جهلها الدوق. فالإسلام قد ساوى بين الناس ولم يجعل المسلم فضلاً على مسلم إلّا بالتقوى. بل هو قد سبق كل النظم الثورية بألف عام حين أنكر امتيازات المولد والثروة. وليس في الإسلام طبقة يصل عن طريقها الفرد إلى ربه، طبقة دنيئة تمثل السلطة الروحية التي كانت للكنيسة في أوروبا.

والإسلام من بين الأديان جميعاً هو الذي يُقرر أن عمل المرء أو جهده يرفعه حتى يصل إلى أعلى المراتب مثلما وصل كثير من العلماء المسلمين إلى مرتبة الوزراء والقضاة دون نظر إلى نسبهم. والإسلام يفرض الزكاة على أغنياء المُسلمين لتُنفق على الفقراء والمحرومين. والرسول ﷺ يقول: «الناس شركاء في الماء والكلأ والنار». وتلك صورة واضحة من أقوى صور الاشتراكية التي التفتَ إليها رجال الاجتماع في العصر الحديث. ويتوصل قاسم أمين إلى أن على الأوروبيين أن يدرسوا الإسلام وعندئذٍ سوف يجدون من نُظمه ما هو جدير بتطبيقه في بلادهم نفسها. وليس عيب الإسلام أن تضعف الدولة فيقوم بأمرها طُغاة مُستبدون لا يعرفون إلّا مصالحهم الشخصية

وليس عيبه أيضاً أن يوجد من رجال الدين النفعيون والجهلاء الذين زيّفوا على الناس كثيراً من الحقائق.

ويعرض بعد ذلك للروح الحربية عند المصريين ويتحدث عن الثورة العُرابية كدليلٍ قاطع على وجود هذه الروح القوية عند الجيش وعند المصريين جميعاً، فلولا هذه الروح ما قامت الثورة. فإذا فشلت الثورة فإن للدسائس والخيانات دخلاً، كما أن القوة المادية لجيش الاحتلال التي تدل على ضعف معداتنا، لا تدل أبداً على فقدان هذه الروح.

ثم يتناول بعض الإصلاحات التي قامت بها الدولة كإلغـاء الرق والسخرية. وانتشر التعليم وإن يكن في مراحله الأولى، ولكن الأمل كبير في تطور سريع يعود بنا إلى النظام الديمقراطي الأول.

وينتقل بعد ذلك إلى الفصول الخاصة بالمرأة فيتناول الموضوع من جوانبه المتعدّدة ـ منزلة المرأة وتعدّد الزوجات والطلاق.

أما بالنسبة لمنزلة المرأة فإن الإسلام قد سبق كل شريعة سواه إلى تقرير حقوق المرأة كاملة قبل أن تعرضها أوروبا باثني عشر قرناً فهي وإن تزوجت تحتفظ بحقوقها المدنية، ولها الحق أن تتصرف في مالها من غير إذن زوجها كما هو في فرنسا. بل ليس للزوج عليها إلاّ سلطان معنوي ومعاملة بالمعروف.

وليس الحجاب معناه السجن في المنازل كما رأى الدوق فإن النساء يخرجن للزيارات وللأسواق، وهنّ بعيدات كل البعد عن تلك الصورة المُظلمة التي رُسمت لهن. ولكن الحقيقة التي لا بد من التسليم بها هي الجهل ولكن الأمل معقود على الرغبة الموجودة عند الرجال في تثقيفهن حتى يكون الجيل الجديد أكثر تبصراً إذا ما تربّى على أيدي نساء مثقفات.

ثم يقارن قاسم أمين بين تعدّد الزوجات عند المسلمين أو الطلاق وبين العلاقات غير الشرعية التي يقوم بها الرجل في الغرب ويؤكد أن أثر هذه العلاقات أقسى على المجتمع من تعدّد الزوجات فهناك زوجات بلا أزواج، وأبناء بلا آباء.

وقد أدرك الشرع الإسلامي كل هذه الأخطار فحلّل تعدّد الزوجات، وسمح بالطلاق. وقد وضع شروطاً للتعدّد واشترط العدالة بين الزوجات وأباح الطلاق في حال فسدت العلاقة بين الزوجين، وجعل أبغض الحلال إلى الله الطلاق.

ثم انتقل قاسم أمين إلى المرأة الأوروبية فيؤكد أن ربع المواليد في فرنسا غير شرعيين، ويؤكد أن المرأة الباريسية هي التي تعيش لغرائزها، ومرجع كل ذلك إلى الاختلاط الشديد بين الرجل والمرأة التي تهيىء لها كل ظروف الرذيلة..

ثم يتناول الدين والأخلاق والإسلام والبناء، والعلوم والآداب، فيُفسّر أصول الإسلام الخمسة وما فيها من بساطة بحيث لم يتبدل جوهر الإسلام مع تطور الحياة طوال مئات السنين لأنه صالح لكل زمان ومكان. أما القرآن فهو كتاب خُلُقي خالص، في آياته فلسفة واقعية فكرية، كما ينطوي على مبادىء إنسانية عامة لها أثرها الجليل في الاجتماع والتشريع، والقرآن هو الذي بثّ في نفوس المسلمين وحدانية الله، وأشاع بينهم الإخاء والمُساواة، وألّف بين قلوبهم بالصدق والكرم والإخلاص والتسامح والأمانة. وكل هذه الصفات طبعت المجتمع الإسلامي الأول، فالقرآن هو الذي خلق من القبائل البدائية المتشاحنة، شعباً موحداً نسي أحقاده وضغائنه، قوياً استطاع أن يهزم

أكبر قوتين في العالم إذ ذاك.[1].

أما موقف الإسلام من العلوم والآداب، فإن الإسلام قد حثّ على العلم والعمل. وأحاديث الرسول كثيرة منها: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها» ومنها «اطلبوا العلم ولو في الصين».

ويصل قاسم إلى الفصل الأخير من كتابه فيُخصصه للحديث عن «أوروبا» وهنا يلتهب حماسة وغيرة على وطنه. فأوروبا التي تأخذ علينا الضعف والفقر والجهل هي التي تُقيم في سبيل تطورنا العقبات والسدود وفي كل مظهر من مظاهر حياتنا نجد الأيدي الأجنبية تعبث بمصالحنا في سبيل منفعتها الخاصة.

وقد سيطروا على بلادنا سياسياً وعسكرياً وخنقوا كل مشروع وليد، وملأوا حياتنا بزَيف الحضارة الأوربية وحاولوا أن يهدموا بقية البناء الإسلامي... فكيف يستطيع وطن أن يتقدّم وساقاه مُكبلتان بقيود الأجنبي وخطواته رهن إشارة فيه؟..

وبذلك أحسّ قاسم أمين أنه قد سدّ الفجوة التي حاول فيها الدوق أن يجعلها مكاناً لتسرب الشك إلى حياتنا.. ولكنه بعد ذلك بدأ يبحث جدياً في عيوب المجتمع ومشاكله وبدأ تفكيره يأخذ شكلاً إيجابياً، وبدأ يضع أصابعه على كثير من النقط التي أثارها الدوق ليُعيد البحث فيها بحثاً هادئاً عميقاً.. يقوم بذلك من منطلق حبه لوطنه ومحاولة السير في طريق الإصلاح ولو سار وحده.

---

(١) ماهر حسن فهمي/ قاسم أمين ص ١١١.

رائد الإصلاح الاجتماعي

بعد أن كان قاسم أمين يتخذ في رده على الدوق داركور موقف المُدافع إذا هو بعد ذلك يتخذ خطة الهجوم أمام البيئة التي عاش فيها. أحسّ أن المصريين بحاجة إلى الخُلُق القويم، وأن شعورهم القومي في حاجة إلى التثبت، وأن أولادهم بحاجة إلى التربية..

وظلّ لعدة سنوات يدرس هذه الظاهرة ويُنقّب عن النقائص وكان خلال ذلك يُسجّل دراسته عبر مقالات كان يكتبها لجريدة المؤيد يضمنها كل ما فكّر به. فجاءت هذه المقالات كأنها دراسة مسلسلة لكل أمراضنا الاجتماعية.

وقد تضمنت هذه السلسلة تسعة عشر مقالاً تدور حول ثلاثة عناصر. أولها حول المال ويشمل المقالات السبع الأولى والثانية حول أُسس التربية السليمة وهي المقالات السبع التالية، وهي التي سمّاها (أسباب ونتائج) أما العنصر الثالث فهو يدور حول موظفي الدولة يستغرق خمس مقالات سمّاها (أخلاق ومواعظ).

ـ والواقع أن وطنية قاسم كانت الدافع، وما أقوى هذا الدافع من أجل إصلاح الوطن، وكانت شخصيته بما فيها من جرأة وحب للتعمق إلى جذور المشاكل وتجاربه المُكتسبة من حياته في أوروبا ومن توليه منصة القضاء، كفيلة بأن تُهيىء له سُبُل النجاح في ذلك الطريق الوعر

الذي اختار السير فيه.[1].

عرض قاسم أمين في مقالاته الأولى الحالة الاقتصادية في مصر وكان يُحاول أن يُوازن بين المال في مصر والمال في أوروبا ولعلّه كان من أوائل الذين فرّقوا بين العمل الحر المُثمر والعمل الحكومي الذي يدور في نظام رتيب يكاد يخلو من الإنتاج.

فحثّ على التنافس الحر من أجل حياة أفضل، فليس حب المال هو الدافع للصراع، ولكنه حب الحياة الكريمة، والبقاء للأصلح دائماً..

ـ وكان مُدركاً أن مصر مُقبلة على عصر تضيق فيه وظائف الحكومة حتى لا يوجد محل للمُغامرة والطموح وهنا نلمح رسالة الجامعة المصرية في أصلها الأول، وسنرى قاسم أمين قد أدرك فكرة الجامعة على أساس العمل الحر، والإنتاج الطليق[2].

وتحدّث في إحدى مقالاته عن الوقف ونتائجه وعرّف الوقف من حيث الشريعة الإسلامية والفرق بينه وبين المفهوم القانوني ومن حيث إنه عُرف جرت به العادة عند كبار المُلاّك في مصر.. فالوقف شرعاً هو «تجرد الشخص من أملاكه»، وتخصيصها بعد موته أو في حياته لعمل خيري وهو بذلك دليل على نفس طيبة وعواطف شريفة وأميال بارّة، لكن الوقف المعمول به قد قُصد منه أن يحبس الواقف المال لا لفعل الخير، بل ليحول دون ورثته ودون تبديده. فابتعد بذلك عن المقصود منه من عمل الخير وأنتج طبقة من الأبناء السُفهاء الذين يعتمدون على الوقف كل الاعتماد. وقد اقترح قاسم أمين في سنة ١٨٩٤ أن تحلّ الأوقاف إن لم تُنظم.

---

(١) ماهر فهمي/ قاسم أمين ص ١١٧.

(٢) أحمد خاكي/ قاسم أمين تاريخ حياته الفكري.

ثم يقول: «فالمساجد والتكايا والكتاتيب والمارستانات والمُرتبات التي تُعطى لطلبة العلم والفقراء، ونرى آثارها العديدة أو معالمها القائمة منتشرة في البلاد طولاً وعرضاً تشهد لأجدادنا ـ أولئك الصالحين المُحسنين المُتبصرين ـ أنهم كانوا رجالاً يعملون بعقل وروية لإصلاح شؤون بلادهم ومنافع أُمتهم. أما الآن فقد صار الوقف عملاً من الأعمال الاحتياطية التي يتخذها الأغنياء ضد أولادهم»[1].

من هنا نرى أن قاسم أمين قد سبق عصره بأكثر من نصف قرن حين طالب بإلغاء الوقف، وأن تفكيره كان منصباً على قضية واحدة هي الوطن. .

لقد وضع قاسم اليد على مواطن الضعف في الحياة الاقتصادية فرأى أن المغامرة بالتجارة بعد التسلح بالعلم كفيلة بإنعاش الحياة الاقتصادية، ثم كان له آراء بإنفاق المال والمُقارنة بين الإنفاق عندنا وعند الأوروبيين. .

إن نظرته في الإنفاق وفي استغلال المال قريبة قرباً شديداً من فكرة الاشتراكية الإسلامية فهو يرى أنه بالرغم من أن كسب المال أمر عسير فإن إنفاقه بالطُرُق الصحيحة والمجدية أعسر وأصعب. . فالمحافظة على صحة الجسم ورقي العقل أمران جوهريان. .

فالمال لا يجب حبسه عن النفس فهي بحاجة إلى الغذاء الجيد كما هو العقل بحاجة إلى القراءة والسياحة فالتقتير عن الجسم والعقل هو إضرار بالهيئة الاجتماعية ككل بحرمانها من العقل السليم والجسم السليم.

---

(١) أسباب ونتائج / قاسم أمين ص ٣٩.

وكذلك حبس المال عن تربيـة الأبناء الـتربيةَ الصـالحة يؤدي إلى النتيجة السيئة نفسها، من حيث يرث الجهلاء من بعد هذا المال فلا يدرون سُبُل إنفاقه ومن هنـا يتسرب إلى حجور الغـانيات أو مـوائد القمار.

ويضرب المثال بالغربيين، ففي كل مدينة أوربية عشرات الجمعيات الخيرية، هذه تهتم بالفقراء، وتلك بالمرضى، وثالثة تعينُ المُختـرعين والمُكتشفين ورابعة تُنفق على المدارس الأهلية، وغيرها كثيرات.

حاول قاسم أمين أن يُوجه الأغنياء في بلده إلى حق المجتمع في مالهم وإلى تقصيرهم في أداء ما عليهم من حقوق ليتساند المجتمع في تلك الفترة التي يحاول فيها المُصلحون إعادة بنائه.

ثم يؤكد على الأُسرة كأساس للتربية وإلى أهمية الـتربية الـروحية للطفل:

«وأول أساس يقوم عليه بناء التربية الشريفة هو الأساس الديني. فالدين للإنسان هو الشيء الوحيد الذي يُمَثّل بين يدي كل نفس صورة الكمال الحقيقي. وغرس بذور محبة الدين في نفس الطفل بجعل وجهته في كل حركاته وسكناته نحو الكمال في كل شيء، ويخلق عنده رغبة كاملة في كل ما يراه جميلاً»[1].

ومن أصول التربية هي الغذاء العقلي للطفل بمعرفة تاريخه الإسلامي وسيرة الرسول والخُلفاء الراشدين والسَلَف الصالح الذين نعتبرهم من الأمثلة العُليا في حياتنا.

ـ فالتربية عنده لا تقف عند مجرد التعليم بل هو يريد أن يكون لتربية

---

(١) أسباب ونتائج ص ٥٦.

العواطف المكان الأسمى، وهو لا يؤمن بما تُحشى به أذهان التلاميذ من ألوان المعرفة، بل هو يهتم للعواطف التي تنشأ في نفوس الأطفال. والعواطف التي يريد تنشئتها تتصل بالدين والوطنية والإيثار وتفضيل الصالح العام على الصالح الشخصي.

فهو يرى أن المصريين قد حُرِموا هذه العواطف النبيلة لأنهم لم يعودوها منذ الصغر. فإذا اتخذت التربية وسائل يغرس بها المبدأ الديني والإحساس الوطني والغِيرة أو الإيثار كان ذلك نجاحاً للجيل المصري القادم -[1].

وفي المقالة الرابعة عشرة اهتمّ قاسم أمين بإصلاح المرأة. فكان مُتحمساً لموضوع المرأة تحمس الوطني الغيور، لا تحمس الناقد الذي يلتقط العيوب. فيؤكد لنا أنه قد وضع يده على النتيجة القاسية لإهمال التربية، وعلى المفتاح الحقيقي للإصلاح، ذلك الذي كان يبحث عنه منذ أعوام.

«وإني ليؤلمني أن أكتب حرفاً واحداً ليس فيه معنى الاحترام العظيم لكل والدة، لأن الاحترام والأمومة في نظري شيئان لا يسوغ فصل أحدهما عن الآخر. ولكن للحقيقة سلطان يصعب على كل ذي نفس أن لا يحسّ به وأن لا يخضع لحكمه. وعلى ذلك فأراني مضطراً أن أجهر باعتراف يشق عليّ كثيراً، ألا وهو أن الأم المصرية لم تُهيأ مطلقاً لأن تقوم بوظيفتها في العائلة.. وإذا صرّح لي أن أبدي كل فكري أقول أن الأم في بلادنا صارت مدرسة ثابتة عملها الوحيد مكافحة كل ما يتلقّاه الطفل من سواها. وقد يحتار هذا الضعيف المسكين بين مَن يصدق ومَن يكذب، مَن يتبع ومَن يخالف، إلاّ أن مدرسة الأم لا شك فائزة

---

(١) أحمد خاكي/ قاسم أمين تاريخ حياته الفكري.

على كل حال، لأن الطبيعة تشتغل معها وتساعدها بما أودع الله في نفس الطفل من الميل إلى الوالدة، ولأنه يُعاشرها أضعاف ما يُعاشر غيرها. ويكفي الواحد منّا أن يلتفت إلى الوسط الذي هو عائش فيه الآن، ثم يرجع بفكره إلى عهد شبوبيته الأولى فمهد طفوليته ليحكم بنفسه أن حالة الأمهات لا يمكن السكوت عنها».

إذن الأم هي التي تؤثر في نفس الطفل أكثر من أي إنسان آخر، فإن لم يكن لهذه الأم قسط من العلم شبّ أبناؤها وهم يدورون في حلقة من الجهل الغاشم وهذا ما يحدث في البيئة المصرية، فإذا شبّ الطفل عن الطوق وجد الهوة سحيقة بينه وبين أمه وعاش في عالم الأوهام والخرافات.

«وليس مُرادي أننا صرنا إلى حالة نكره فيها قريباتنا النساء أو أننا مُجردون عن الحنو لهن، ولكنني أقول إن المحبة الجوهرية التي تكون من اتحاد الفكر واتحاد الإحساس ـ هذه المحبة الحقيقية الكُليّة التي تمزج الشخصين وتجعلهما شخصاً واحداً، هذه المحبة التي نتمتع بها حتى مع الصديق الأجنبي عن عائلتنا عندما نأنس معه بالحديث في الجهر وبالسكوت في السر، كأنما الأرواح تُناجي بعضها وتتواخى بأشياء لطيفة ـ لا يمكن أن توجد بين رجل وامرأة مصريين».

أما مقالاته الخمس الأخيرة وهي تحت عنوان «حِكَم ومواعظ» فهي تتحدث عن المُوظفين ومشكلة الوظيفة وأخلاق المُوظفين والأنانية التي تُميّزهم لأن الموظف لا يرى إلاّ نفسه ولا يهتم إلاّ بمصالحه الخاصة.. والموظف الكبير عنده كان رجلاً دسّاساً يمثل فصولاً متقنة ذات مناظر عجيبة، وهو كان يتقلّب بين الخديوي وبين ممثّل إنجلترا، وبين الوزراء.. هو انجليزي مع الانجليز وفرنسي مع الفرنسيين وكذلك

يدور في حلقة يستطيع فيها أن يُرضي الجميع ليُرضي نفسه.

«... إذا كان في مجلس وتحقق أنه يكره الانكليز كان أول مَن يذمهم، وإذا وجد نفسه في جمعية انكليزية كان أول مَن يذم أبناء جنسه».

«... صادفته مرة بين قوم من الفرنساويين يقول لهم: آه لو كان الفرنساويون هم الذين دخلوا بلادنا لكنا أسعد الناس، فإن المصري ميّال بطبعه إلى الفرنساوي، ونحن نعتبر أن كل تمدننا هو عمل الأمة الفرنساوية.. يقول للسوري إنه لا يفهم معنى كراهية المصريين لهم وأنه لا يُحب التمييز مُطلقاً بين أفراد أُمتين تجمعهما جامعة واحدة، ويقول للقبطي إنه ممن يبغض السوريين ويعلم سر كراهية المصريين لهم. ولكن الأقباط والمسلمين أمة واحدة فيلزم أن يتحد الفريقان.. وهذا الشخص يظن أن علم السياسة العملية هو غش الناس بكل وسيلة، ومن الغريب أنه يحفظ لنفسه مكانه بهذه الطريقة ولا يكشف حقيقة أمره إلاّ نفر قليل، إذا تكلموا ضاع صوتهم الضعيف».

اتجاه قاسم أمين الفكري

حين فكّر قاسم أمين في التربية فكّر في الأُسرة.. وحينما فكّر في الأُسرة فكّر في المرأة.. فلذلك آلى على نفسه أن يكتب للمرأة وعن المرأة فارتبط اسمه بإصلاحها.

لقد نشأ قاسم أمين في بيئة كانت النساء فيها مهضومات الحقوق وكانت مشاهد الظلم والعسف تقع بين ناظريه: حقاً كان قد ألغى الرقيق وأعتق الإماء ولكن آثار الرقّ كانت لا تزال باقية..

وكان الطلاق سهلاً وكان تعدّد الزوجات وجهل المرأة وإيمانها بالأباطيل والخرافات.

فترى آثار هذه المشاهد مُنتشرة في كُتبه هنا وهناك وسخطه يبدو واضحاً عليها، فهذه أُسَر قد أضرّ بها الطلاق وهذه نساء لا يسمح لهن بتناول الطعام مع أزواجهن على مائدة واحدة وهذه الأمهات اللواتي كان لهن أسوأ الأثر في تربية أبنائهن.. وهذا نصف المجتمع الذي هو مكوّن من النساء يُعاني البطالة..

وقاسم أمين ليس أول مَن لفتَ نظر المصريين إلى تعليم المرأة فقد كان هناك مَن بحث أمر تعدّد الزوجات وتعليم المرأة والطلاق الكثير من المُفكرين الإصلاحيين الذين طالبوا بحقها المهضوم وكان من هؤلاء علي مبارك ورفاعة الطهطاوي والشيخ محمد عبده.

كتاب «تحرير المرأة» ١٨٩٩

يقول قاسم أمين في مقدّمة كتابه «هذه الحقيقة التي أنشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها أقلبها وأمتحنها وأُحلّلها، حتى إذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني، وزاحمت غيرها وتغلبت عليه، وصارت تشغلني بورودها وتُنبهني إلى مزاياها وتذكرني بالحاجة إليها فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر».

وهو يرى أن المرأة مُستضعفة، وما دام الحق للقوي فإن الرجل يستبد بالمرأة.. وفي رأيه أن هذا هو السبب الذي نزل بمركز المرأة في البيئات الشرقية إلى منزل وضيع.

فعاشت المرأة في هذه البيئات خاضعة للرجل خضوعاً أعمى وأنكرت عليها حقوقها سواء كانت أماً أو زوجة أو بنتاً «ولم يبقَ لها من الكون إلاّ ما استتر من زوايا المنازل، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات، واستعملها الرجل متاعاً للذة يلهو بها متى أراد ويقذف به في الطُرُق متى شاء. له الحرية ولها الرقّ، له العلم ولها الجهل، له العقل ولها البله، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن. له الأمر والنهي ولها الطاعة والصبر. له كل شيء في الوجود، وهي بعض ذلك الكل الذي استولى عليه».

ويعرض الصور التي تحتقر فيها المرأة فهي مُحتقرة حين يتزوج زوجها

بأخرى أو حين يعلن أنها ليست أهلاً للثقة أو حين يُطلِّقها بدون سبب.. وهي مُحتقرة حيث إنها غير مسموح لها بالعلم أو العمل وليس لها رأي في الفن أو المعتقدات الدينية أو مشاعر خاصة.

وقد رأى أن الحل الأفضل لرفع شأن المرأة ومكانتها أولاً بتربيتها التربية الصحيحة وتعليمها العلم الذي يُوافق ذوقها والاشتغال به إن شاءت. إذن على المرأة أن تدرس العلوم كافّة لأنها هي الأساس في الأسرة وفي بناء المجتمع بالتالي.

«فيجب أن تتعلّم كل ما ينبغي أن يتعلّم الرجل من التعليم الابتدائي على الأقل حتى يكون لها إلمام بمبادىء العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يُوافق ذوقها منها وإتقانه بالاشتغال به متى شاءت».

وقد حثّ قاسم أمين على علم المرأة ولكنه لم يدعها للعمل خارج البيت إلاّ في حالات الضرورة القصوى كأن يتوفّى زوجها وليس لها مُعيل أو في حالة الطلاق فإن عملها يقيها من مذلّة السؤال ويرتفع بها عن مهاوي الرذيلة.

ويرى قاسم أمين أن العلم مُفيد في كل حالات المرأة فالعلم يفيدها إن كانت فقيرة في الاستغناء عن الغير وإن كانت غنية في الحفاظ على حالها من الغرباء، وللمرأة المتزوجة تستفيد منه في تعليم صغارها وتربيتهم التربية الصالحة، فالعلم ليس مخصوصاً للذكر دون الأنثى وفي كل نفس شوق يدفع الإنسان إلى مطالعة الحقائق وممارسة الفنون...

ثم ينتقل قاسم في كتابه إلى تربية المرأة لتكون زوجة صالحة وأماً.. ويرى أن الحياة الزوجية تقوم قبل كل شيء على الانجذاب الروحي والانجذاب المادي. والمرأة عنده يجب أن تكون صديقة لزوجها..

فالصداقة مُتجدّدة لا يضيق بها الرجل ولا المرأة وزواج بـلا صداقـة زواج فاشل. وكي تكون هذه الصداقة فلا بد أن يكون بين الـرجل والمرأة تكافؤ في الشعور والتفكير. يجب أن يكون بينهما توافق في كثير من ألوان الشعور وتبادل في اللذّة والألم وتشارك في الوجدان والرأي. وإذا كانت الهُوّة عميقة بين الرجل والمرأة في الفكر والمستـوى نجدهـا قد انحطّت عن الرجل فأصبحت لا تحسّ إحساسه ولا ترد موارده، ولا تستطيع أن تُفسّر ما يأخذ وما يدع. تكره الكتب وتضيق بالعلم وتقضي أوقات الفراغ ـ وكل أوقاتها فراغ ـ تخلق المُنازعات لتقضي عـلى بقية السعادة التي قد يحسّ بها زوجها يقول: «نرى نساءنا يمدحن رجالاً لا يقبل رجل شريف أن يمد يده لهم ليُصافحهم ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفاً لنا، ذلك لأن المرأة الجاهلة تحكم عـلى الرجـل بقدر عقلها، فأحسن رجل عندها هو من يُلاعبها طوال النهار وطول الليل ويكـون عنده مـال لا يفنى لقضاء مـا تشتهيـه من المـلابس والحـلي والحلوى، وأبغض الرجال عندها من يقضي أوقـاته في الاشتغـال في مكتبه»[1].

وينقل قاسم أمين إلى أن عبء التربية يقع على كاهل المرأة قبل أن يقع على كاهل الرجل. فلا سبيل إلى تربية أمة حتى تصلح نساؤها ولا سبيل إلى إصلاح النساء إلاّ بتربيتهن.

والتربية لا تقف عند القراءة والكتابة وإنما تكون بأن تُنشيء لدى المرأة عقلاً عملياً يصل السبب بالنتيجة والعلّة بالمعلول. وكلما تجردت المرأة من الأوهام قربت من السعادة. وقد دحض قاسم أمين فكرة أن المرأة تفسد أحوالها في حال تعلمت فهذا ليس دليل على أن العلم مُفسد

---

(١) تحرير المرأة ص ٣٤.

للنساء، والحقيقة أن طهارة القلب في الغرائز والطباع فإن كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحاً وتقوى، وإن كانت فاجرة فلم يزدها العلم فجوراً وكذلك الرجل.

يقول: «والمُعوّل في كل ذلك على الأخلاق التي نشأت عليها المرأة في تربيتها الابتدائية. فإن اعتادت على أن تشغل أوقاتها بالمُطالعة ومُزاولة الأعمال المنزلية، وتربت بين أهل وعشيرة رأت فيها أُسوة الجدّ والاستقامة، وغاب من بينهم كل ما يؤثر في مشاعرها أثراً غير صالح أو يهيج حسّها إلى أمر غير لائق، وتعوّدت على أن تُقيم من عقلها حاكماً على قواها الحسيّة، كان من النادر أن تحيد عن الطريق المستقيم وأن تُلقي بنفسها في غمرات الشهوات التي لا تسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم. وبالجملة فإنّا نرى أن تربية العقل والأخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل. بل هي الوسيلة العُظمى لأن يكون في الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطُرُق المُحافظة عليه. وأرى أن من يعتمد على جهل امرأته مثَله كمثَل أعمى يقود أعمى مصيرهما أن يترديا في أول حفرة تصادفهما في الطريق»[1].

ثم انتقل قاسم أمين بعد ذلك إلى الحجاب وقد انصرف جهده إلى التدليل على أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده.

فالحجاب الشرعي يقتضي ستر جسم المرأة ما عدا الوجه والكفين والقدمين أما الحجاب الحالي فليس هو من الإسلام في شيء يقول «إنني لا أزال أُدافع عن الحجاب وأعتبره أصلاً من أُصول الأدب التي يلزم

---

(١) تحرير المرأة ص ٥١.

التمسك بها. غير أني أطلب أن يكون مُنطبقاً على ما جاء في الشريعة الإسلامية»

وهو يرى أن الحجاب لا يقي المرأة من الفتنة فإن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضائها وما خفي بل فيما يصدر عنها من أفاعيل أثناء سيرها، والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك إذ هو يخفي شخصيتها، ولو كان وجهها مكشوفاً فإن كرامتها أو نسبها إلى عائلتها يُشعرانها بالحياء والخجل في كل عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها في استلفات الأنظار.

أما الحجاب فمعناه الآخر أن تُحجب المرأة في بيتها ويحظر عليها أن تُخالط الرجال. وهذا الحجاب هو مانع عظيم يحول دون المرأة وارتقائها وبذلك يحول بالتالي بين الأمة وتقدمها.

- والمرأة التي تُخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجبة، لأنها اعتادت الاختلاط بحيث أصبح أمراً طبيعياً. وبديهي أن المرأة التي تُحافظ على شرفها وهي مُطلقة غير محجوبة لها من الفضل أضعاف ما لزميلتها لأن عفتها اختيارية، أما تلك فعفتها قهرية، ولا أدري كيف نفتخر بعفّة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحرّاس وارتفاع الجدران، أيقبل من سجين دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو في السجن؟[1]

وقد عمل على استثارة النخوة والمشاعر فيقول: «أليس من الغريب أن لا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبداً مهما اختبرها ومهما عاشت فيه؟ أليس من العار أن نتصور أن أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة

---

(١) ماهر فهمي/ قاسم أمين ١٤٥.

أنفسهن؟.. متى خرج أحدنا من منزله أو سمح لامرأته أن تخرج بسبب من الأسباب فعلام يتكل إن لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها؟ ثم ماذا يفيد الرجل أن يملك جسم امرأته وحده إذا غاب عنه قلبها؟»[1].

وقد رأى أن الحل الأنسب هو أن يكون الحجاب هو الحجاب الشرعي ويكون الأهم هو تحصين المرأة عن طريق التربية الدينية السليمة. لأن إمكانيات المرأة تستطيع أن تخدم المجتمع وتساهم في تطوره.

---

(١) تحرير المرأة ص ٨٠.

آراء حول كتاب تحرير المرأة

أثار كتاب تحرير المرأة ضجّة كبيرة فقد كان خطوة جريئة جداً في ذلك الوقت الذي كانت الدعوة فيه إلى تعليم المرأة بجرد بصيص ضئيل من النور يتسرب متلصصاً، وبالإضافة إلى ذلك فقاسم لم يدع فقط إلى تعليم المرأة بل دعا إلى كشف الوجه واليدين وإلى خروجها إلى العمل إن اضطرتها الظروف وحاول أن يجتهد في نصوص الدين بما يراه مُلائماً للعصر.

وقد انقسمت الأمة يومها إلى قسمين معه وعليه واتهمه البعض بالمروق من الدين وبتحريض النساء على الفساد. وكان من الذين حملوا على قاسم أمين (اللواء) ولمدة شهور طويلة.

مصطفى كامل ورأيه حول الكتاب:

لقد وجد مصطفى كامل أن الحرية قد أفسدت على المرأة آدابها ومحت كثيراً من الأخلاق الفاضلة وأن ما يُناسب تلك البلاد لا يُوافق البلاد الإسلامية لأن العادات والتقاليد مختلفة.

ولكنه وافق قاسم أمين على وجوب الالتفات إلى تربية المرأة فهي دعوة لا يمكن لأي مثقف أن يرفضها.. ثم يخدش قاسم في مصريته فيقول: «ولست أدري إذا كان هذا الشعور طبيعياً عند كل الرجال أو منشؤه الميراث الذي يحمله كل منّا في دمه من أخلاق آبائه وأجداده.

وسواء كان هذا أو ذاك فإن الحرية التي تقتل العصمة شر عندي من الحجاب القاتل للرذائل».

أما محمد فريد وجدي في (المؤيد) فردّ ببضع مقالات بدأها مُتسائلاً: هل المرأة مساوية للرجل في سائر الحيثيات؟ ثم يجيب مُتسائلاً: وهل لدينا دليل حسيّ على هذا الجواب السلبي أصدق من وجود المرأة من ابتداء الخليقة للآن تحت سيطرة الرجل يوجهها كيف يشاء ويحكم عليها بمقتضى أمياله. إذا كانت المرأة مساوية للرجل من الجهتين الحسيّة والعقلية، فلماذا خضعت كل هذه الألوف المؤلفة من الأعوام لسلطان الرجل وجبروته؟..

أما في الشام والعراق فقد كان أيضاً هناك المؤيد والمُعارض، فالمُعارضون يرون الدعوة إلى خروج المرأة اقتداء بالغربية دعوة لا تستند إلى حجة مقبولة لأن الغربية لم تُنادِ بالخروج إلى الحياة وإلى الحرية المُطلقة وإنما الرجال هناك هم الذين دفعوها إلى العمل تخلصاً منها وطمعاً في الانتفاع بتعبها فكانت النتيجة أن استدرجت إلى مواقف لم تأمن معها من الزلل، وفقدت بيتها وفقدت أُنوثتها.

أما في العراق فثورة رجال الدين كانت عنيفة ضد قاسم أمين ومؤيديه، فدُعاة السفور في رأيهم دُعاة فساد، لأنه يُخالف ما أمر به الدين ولأن السُفور يقود الناس حتماً إلى المجون وهدم القيم وبذلك تنحل كل الروابط الاجتماعية.

وفي الشام رأوا ـ أن ثقافة المرأة ينبغي أن تكون محدودة لأنها إذا توغلت في عباب العلوم، واندفعت نحو الحرية قصرت عن القيام بواجباتها الأصلية، وهي في غنى عن سعة الثقافة بمركزها كأم في البيت.

وقد أُلِّفت الكتب الكثيرة للرد على قاسم أمين والدفاع عن الحجاب ووجهات نظرهم. ومن هذه الكتب:

«تربية المرأة والحجاب» لمحمد طلعت حرب.

و «السُنّة والكتاب في حكم التربية والحجاب» لمحمد إبراهيم القاياتي.

و «الجليس الأنيس في التحذير عمّا في تحرير المرأة من التلبيس» لمحمد أحمد حسين البولاقي.

و «خلاصة الأدب» لحسين الرفاعي.

و «رسالة الفتى والفتاة» لعبد الرحمن الحمصي.

أما «المنار» التي يصدرها محمد رشيد رضا تلميذ محمد عبده ـ فهي أول صحيفة بادرت إلى تأييد قاسم أمين فقالت في أحد أعدادها:

«إذا توهّم بعض القُرّاء أن ما ورد في كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مُخالطتها بالرجال دفعاً للفتنة، هو من الأحكام الدينية التي لا يجوز تغييرها، فنقول إن هذا الاعتراض مردود بأن الأحكام الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق، ووكلت فهم الجزئيات إلى أنظار المُكلفين، ووصفتها تحت اجتهادهم، وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبي بين أصحابه وأتباعه»[1].

ومن بين المؤيدين ولي الدين يكن حيث يقول: «قالوا إن تعليم المرأة مهيع إلى إفسادهن، وما في القائلين بذلك مَن تعلّمت أمه وعرف

(١) د. ماهر حسن فهمي/ قاسم أمين ص ١٧١.

فسادها إن هو إلاّ لجاج مُبين.

أبى القُدماء مُزايلة عاداتهم فضلّوا وأضلوا وحسبوا عصر أبنائهم مثل عصرهم فشقوا و أنـقوا. حتى إذا كانت العاقبة إذا هم في أجداثهم راقدون لا يسمعون. فتقص عليهن قصص مَن خلفـوا، ولا يتعظ بمصارعهم مَن عاش بعدهم ورأى خطأهم، ومَن لا تعظه العِبَر لا تؤلمه وقعات الصروف»[1].

أما كتب المؤيدين فأهمها:

«رسالة في نهضة المرأة المصرية والمرأة العربية» لعبد الفتّاح عبادة.

و «إكليل غار على رأس المرأة» و «النسائيات» لجرجي نقولا باز.

وكتب كثيرة ألّفتها النساء بعد ذلك دفاعاً عن قضيتهن.

أما الشعراء فقد كانوا أشد انفعالاً بالأحداث لـما للشعـر في تلك الفترة من دور توجيهي هام فكان من المُعارضين: الشاعر عبد الحسين الأزري وقد لجأ إلى الدين أيضاً، وهو لا يرى مانعاً من تثقيف الفتاة ولكن ما شأن الحجاب بالثقافة.

نصّ الـكـتـاب عـلى الحـجـاب ولم يـبـح
لـلـمـسـلـمـين تـبرج الـعـذراء
مـاذا يُـريـبـك مـن حـجـاب سـاتـر
جـيـد المـهـاة وطـلعـة الـزلـفـاء
مـاذا يـريـبـك من إزار مـانـع
وزر الـفـؤاد وضـلـة الأهـواء

---

(١) د. ماهر حسن فهمي / قاسم أمين ص ١٧١ ـ ١٧٢.

مـا في الحجـاب سـوى الحيـاء فـهـل مـن
التـهـذيـب أن يهـتـكـن سـتر حـيـاء

هـل في مجـالـسـة الفـتـاة سـوى الهـوى
لـو أصـدقـتـك ضـمائـر الجـلسـاء

شـيّـد مـدارسـهـن وارفـع مـسـتـوى
أخـلاقـهـن لـصـالـح الأبـنـاء

أسـفـيـنـة الـوطـن الـعـزيـز تـبصري
بـالـقُـعـر لا يـغـررك سـطح المـاء

أما أحمد محرم الشاعر المصري فيُهاجم قاسم أمين ويـراه واهماً في دعوته الإصلاحية ويرى أنه بدعواه هـذه يدعـو إلى الهدم وليس إلى البنيان ثم يشكك بقدرة المرأة على أن تفيد المجتمع وأن تأتي بما لا يستطيع أن يأتيه الرجال:

أغـرّكِ يـا أسـماء مـا ظـنّ قـاسـم
أقـيـمـي وراء الخـدر فـالمـرء واهـم

سـلام عـلى الإسـلام في الشرق كـلـه
إذا مـا استـبـيـحـت في الخـدور الـكـرائـم

أقـاسـم لا تـقـذف بـجـيـشـك تـبـتـغـي
بـقـومـك والإسـلام مـا الله عـالم

أُسـائـل نـفسي إذ دلَـفـتَ تـريـدهـا
أأنـتَ مـن الـبـانـين أم أنـتَ هـادم؟

وإن امـرأً يـلـقـي بـلـيـل نـعـاجـه
إلى حـيـث تـسـتـن الـذئـاب لـظالم

ألا إن بالإسلام داء مخامراً
وإن كتاب الله للداء حاسم

أما أنصار المرأة من الشعراء فكان الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي وكان في دعوته مُتسرعاً من دُعاة الطفرة ثائراً من دُعاة الانقلاب. فهو لا يدعو المرأة إلى خلع الحجاب ولكن يدعوها إلى تمزيقه، وهو لا يدعوها إلى المطالبة بحقها، ولكن يدعوها إلى الثورة على الرجال، إلى رجمهم إن لاموها على شعورها ورغبتها.

أسفري فالحجاب يا ابنة فهر
هو داء في الاجتماع وخيم
كل شيء إلى التجدد ماضٍ
فلماذا يقر هذا القديم
انزعيه ومزقيه فقد أنكر
ه العصر ناهضاً والحلوم
وارجمي مَن يلومكِ فيه
إن شيطان اللائمين رجيم
لم يقل بالحجاب في شكله هذا
نبي ولا ارتضاه حكيم
هو في الشرع والطبيعة والأذوا
ق والعقل والضمير ذميم
السفور السفور فالهلك للشعـ
ـب أخيراً بدونه محتوم
لا يقي عفّة الفتاة حجاب
بل يقيها تثقيفها والعلوم

وللرصافي قسم خاص في ديوانه سمّاه (النسائيات) وخصصه للدفاع عن قضية المرأة، حتى لقد بلغ به تحمسه لقضية المرأة أن تعرّض لرجال الدين. في قصيدته المرأة المسلمة يقول:

لم أرَ بين الناس ذا مظلمة
أحق بالرحمة من مسلمة
منقوصة حتى بميراثها
محجوبة حتى عن المكرمة
قد جعلوا الجهل صواناً لها
من كل ما يدعو إلى المأثمة
والعلم أعلى رتبة عندهم
من أن تلقاه وأن تعلمه
ما تصنع المرأة محبوسة
في بيتها إن أصبحت مُعدمة
ضاقت بها العيشة إذ دونها
سدّت جميع الطُرق المعلمة
عاب عليها قومها ضلّة
أن تكسب القوت وأن تطعمه
فانقطعت في العيش أسبابها
وأصبحت للبؤس مستسلمة
فهذه حالة نسواننا
وهي لعمري حالة مؤلمة
ما هكذا يا قوم ما هكذا
يأمرنا الإسلام في المسلمة

فهل بكم من راحم للنسا
فهن أولى الناس بالمرحمة

وفي مصر أيّد حافظ ابراهيم الدعوة إلى تثقيف المرأة وإلى حجاب لا يميل إلى الإرهاق والتضييق ولكنه في الوقت نفسه لم يستطع أن يدعو إلى حرية كاملة للمرأة:

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددتَ شعباً طيِّبَ الأعراق
أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً
بين الرجال يجلنَ في الأسواق
يدرجنَ حيث أردن لا من وازعٍ
يحذرن رقبته ولا منٌ واقي
يفعلنَ أفعال الرجال لواهياً
عن واجبات نواعس الأحداق
في دورهن شؤونهن كثيرة
كشؤون رب السيف والمزراق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا
في الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حُلى وجواهراً
خوف الضياع تُصان في الأحداق
ليست نساؤكم أثاثاً يقتنى
في الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان في أدوارها
دولاً وهنّ على الجمود بواقي

فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا
فالشر في التقييد والإطلاق
ربّوا البنات على الفضيلة إنها
في الموقفين لهن خير وثاق

ولكن قاسم أمين في كل هذا بين مؤيديه ومُعارضيه كان يقرأ كل ما يُكتب وكان يجمع مادة غزيرة يدحض بها حُجج المعارضين ويدأ بكتابة كتابه الجديد «المرأة الجديدة» واتبع فيه منهجاً علمياً دقيقاً، فهو يرفض أن يقبل أي دعوى من الادعاءات الشائعة دون أن يقوم عليها الدليل العلمي القاطع.

وقد دعا إلى دراسة وضع النساء في جميع أعمارهن ووضعهن الاجتماعي ثم المقارنة مع وضعها في غير بلادنا. ويناقش الكثير من الادعاءات الشائعة التي توارثها الناس كزعمهم أن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير وأنها أضعف عزيمة من الرجل وأقل قدرة منه على مقاومة الشهوات.

مختارات

من أسباب ونتائج

ـ أصول التربية ـ

ونعني بالأصل هنا: الأُسُس الذي يشيد عليه البناء قائماً ثابتاً، لأن كل نفس صنعتها تربية حسنة تكون قائمة على قواعد متينة تحفظها من السقوط في مهاوي التلف، وتمكنها من مقاومة عواصف الشهوات والحوادث التي لا بد من مُصادفتها في الحياة.

ومن الأسف أننا إذا نظرنا إلى نفوسنا وجدنا تربيتنا كبناء على شفا جرف هار.

وأول أساس يقوم عليه بناء التربية الشريفة هو: الأساس الديني. فالدين للإنسان هو الشيء الوحيد الذي يُمثّل بين يدي كل نفس صورة الكمال الحقيقي. وغرس بذور محبة الدين في نفس الطفل يجعل وجهته في كل حركاته وسكناته نحو الكمال في كل شيء ويخلق عنده رغبة كاملة في كل ما يراه جميلاً.

وليس في الحياة وقت أحلى وألذ على النفس من أن الإنسان يُجرّد نفسه سويعة من الزمان من كل ما يحيط به من عالم الكون الذي هو فيه، ويذهل عما فيه من القبائح والمظالم والمصائب، بل ومن الأفراح التي لا تخلو دائماً من شائبة كدر تمازجها أو تتبعها، تلك الأفراح الكاذبة

الغاشّة، كما تغش التفاحة بهيئتها النضرة ظاهراً وقلبها مسكن الديدان، فإن جرّدها، كما تقدم، وقلّب وجهه في السماء زمناً خاشعاً ساكناً حيران راجياً ناسياً كل شيء ـ حتى ذاته ـ ثم رجع بعد ذلك إلى نفسه وجدها شيئاً تافهاً حقيراً ناقصاً، فتميل روحه، إذ ذاك إلى الترفع عن الأشياء المادية، والتنزه عن الدنايا والشهوات، ويرى نفسه ساعتئذٍ عالقة بمحبة الكمال في كل شيء. . .

والأساس الثاني للتربية هو: الإحساس الوطني. وهو يتولّد كذلك عند الطفل من الحديث والقراءة والإحاطة بكل ما يعلي شأن الوطن وما يُسقطه، وتعويده على النظر إليه كشيء محترم جليل مقدّس، وتفهيمه بأنه وحده ليس لعمله قيمة ولا لوجوده اعتبار ذاتي وإنه بانضمامه لأمته يكون قوة عظيمة، وإن منفعة الإنسان صغيرة زائلة ومنفعة الأمة كبيرة راسخة، وأنه يجب علينا أن نعمل لمن يخلفنا في وطننا مثل الذي عمله أسلافنا لنا. .

أما الأساس الثالث فهو: مراقبة الوازع النفسي، أو ما يُسميه بعضهم تنمية الضمير، ويُسميه الأوربيون المحكمة الباطنية التي يحاكم الأنسان نفسه أمامها.

وقد يظهر أن رجوع الإنسان إلى نفسه بهذه الطريقة أمر فطري، إلاّ أنه ليس هذا صحيحاً إلاّ عندما يقع في عمل يوجب التبعة والمسؤولية، إذ في ذلك الوقت يكون حكم الضمير قوياً صارماً، فيعرف الإنسان أنه مذنب ومقصّر ويندم على فعله.

ولكن أي الناس يحاسبون نفوسهم على أعمالهم اليومية؟ أي الناس يستعملون الذمّة مع أولادهم وأزواجهم وأقاربهم وأصحابهم وخادميهم ومَن يتعاملون بالبيع والشراء والإجارة وغير ذلك؟ بل نرى ونشاهد

أكثر الناس مشغولين بمراقبة أعمال غيرهم حاكمين عليهم أشد الأحكام وكأنما هم لم يخطر على بالهم أن يراقبوا أعمالهم لحظة واحدة، ولا أن يحكموا على أنفسهم ولو بمنتهى الحنان والشفقة يوماً واحداً! . .

ولهذا يجب تعويد الطفل من الصغر على أن يتداول مع نفسه ويختار ويحكم ويحاسب ذاته أمام ضميره.[1]

---

(١) قاسم أمين الأعمال الكاملة/ الدكتور محمد عمارة ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

عيوب تربيتنا «إحساس الاحترام»

إحساس الاحترام هو محك التربية، فكلما كان نامياً في أُمّة كانت تربيتها جيدة، وإذا فقد كان فقدانه إنذاراً بانحلال جامعتها وسقوط أُبهتها وعظمتها.

وإن أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد في رفعة شأنها هـو احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية، مثل الـدين والوطن والسلطة العمـومية والعائلة والعلم والفضيلة، وكل عمل شريف أو جميل أو نافع.

وإذا كان هذا الاحترام عاماً عند الجميع وشاملاً لجميعها كان دليلاً على قوة تربية الأمة حيث لا يجرأ على مخالفة هذا التيار القوي إلاّ نفر قليل.. [...] والعائلة يلزم أن يكون أساسها الاحترام. ونحن مع الأسف نرى الروابط العائلية عندنا قلما تكون محترمة، وكثيراً ما يتغلب عليها هوى النفس. فليس بالنادر أن يتزوج الرجل امرأة وتلد له أولاداً ثم يتركها وأولادها ويتزوج سواها، وقد يترك هذه حاملاً ليأخذ غيرها كذلك. وهكذا يقضي حياته في تشييد بناء عائلات وهدمها بدون أن يتعلق بواحدة ويعيش فيها مع زوجته وأولاده، لأنه لم يفكر إلاّ في لذّة دنيئة لا تُذكر في جانب الأضرار التي تنجم عنها.

وإن أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة هو الطلاق ـ وهو أبغض الحلال إلى الله ـ وقد اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جداً لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلّم بها العقل.

نعم إن شريعتنا الغرّاء جعلت بقاء العصمة بين الزوجين على مبدأ الحرية، فكان الرجل مالكاً لأمر الطلاق، وهو حر فيه، ولكن هذه الحرية ما اعتُبرت مبدأ له إلاّ لأنه ليس في الوسع حصر الأسباب التي تستدعي حل رباط الزوجية، وعلى الخصوص حتى لا يكون الرجل مُلزماً بالإفصاح عن هذه الأسباب، وحاشا أن تقصد شريعتنا تسهيل قضاء الشهوة البهيمية على الشرهين فيها ليشغلوا أنفسهم بالتمتع بالنساء واحدة عقب الأخرى ويتركوا أولادهم هملاً شرداً في الطرقات بلا مأوى ولا نفقة ولا تربية.

وأقبح شيء شائن في أخلاقنا هو اعتياد الأزواج على الحلف بالطلاق كلما نوقشوا في شيء، حتى فيما لا علاقة له بالزوجية على الإطلاق. ولو اقتفينا أثر رجل من أصحاب هذه العادة الذميمة يوماً من الأيام وأردنا حصر أعداد الطلاق في الأيمان الكاذبة التي يلفظونها بهذه الطريقة السخيفة لوجدناها تفوق حدّ النصاب الشرعي تكعيباً وجذراً ثم جذراً وتكعيباً وهكذا، وهو ما ينبغي أن يسترعي التفات الحكومة والعائلة معاً إلى هذا الأمر المهم الذي له أعظم مساس بالهيئة الاجتماعية.

فعلى الآباء أن يحترموا أنفسهم أمام أولادهم ليأخذ هؤلاء عنهم مثل المحبة والصفاء حتى تتربى نفوس الناشئين على ملكة الاحترام وتصبح العائلة كما يجب أن تكون لا كما هي الآن: ميدان يتخاصم فيه الأهل ويتشاتمون، وقد يتضاربون ويفترقون.[1]

---

(١) قاسم أمين الأعمال الكاملة د. محمد عمارة ص ٢٢٣.

من كتابه «المصريون»
Les, ÈGYPTIENS

(المصـري)

ويحسن الأوروبيون صنعاً لو أنهم كفّوا عن القلق على المصريين فإذا كان المصريون لم يغفروا الإهانات بعد اليوم فلسوف يلقون الأوروبيين بحُسن الضيافة التي يحثّ عليها الإسلام.

إن الشعب المصري شعب رقيق طيّب الأعماق ذكي، نشط، سريع في حذق ما يتعلّمه، فإذا وجد التوجيه السليم لم ينحرف أبـداً عن الصراط المستقيم.

والفلاح ـ رغم مزاعم دوق داركور ـ لا يكره التعليم وليس المثل التركي ـ كما يُقال ـ المثبت في كتاب الدوق داركور، والذي يقول: «إذا أعطى الله الإنسان وظيفة منحه القدرة على مزاولتها» إلاّ من ابتكـار مهرّج ساخر.

إن المرء لا يؤلف من أمثال هذه الترهات كتاباً يدّعي احتواءه على وثائق إنسانية، بل إنه سيكون من المزالق الخطرة أن أناقش وسائـل إعـلام مُماثلة فـذلك شبيـه بترك الـوقائـع المُشاهـدة، وتجنب التفرق الشخصي على الأشياء التي يريد المرء الحكم عليها، والجنوح بدلاً من ذلـك إلى استعارة أقـاصيص الـرحّـالـة الـذي يستحيـل التثبت من

رواياتهم، ثم إنني أعرف بخبرتي ذلك النهج الذي يتبعه الأوربيون في تأليف كتبهم. فهم يعتمدون ما يُقدّمه لهم التراجمة من مواد، وكلما كانت هذه المواد رهيبة شديدة الغرابة كلما غلا ثمنها، دون أن ننسى ما تقدمه هذه المواد من ضمان لنجاح الكتاب[1].

(١) قاسم أمين المجموعة الكاملة/ د. محمد عمارة. ص ٢٥٣.

النساء[1]

. . . ولهذا فإنني سأحمل شرف تقديم نسائنا للقارىء: تبدو المرأة المصرية من الناحية الشكلية أقرب للقبح منها للجمال غير أنها تمتلك عامة جمالاً طاغياً يتجلّى على وجه الخصوص في نسَب أعضائها، ومتانة الجسد وتماسكه، كم تنتشي العيون التي تتطلع إلى فلّاحة جميلة تمشي مستقيمة بارزة النهدين مثقلة القوام ممتلئة العينين بالأحلام، طويلة تقريباً، في كفيها وقدميها دقة رائعة. أما ما تتميز به حقاً فهو عيناها الواسعتان السوداوان الحانيتان حتى ليحسبها المرء عيني «ملاك» والمعبرتان، حتى ليفهمها المرء قبل أن تتحدث هي! . . أما من الناحية المعنوية فهي مخلوق متكاسل، ذات طبيعة تأملية، وبعيدة عن الفاعلية، تُكثر الحديث والضحك، تحب دينها، لكنها لا تُمارسه، ليس لها مَثَل أعلى: وتتأقلم مع الحياة الواقعية، وهي زوجة نموذجية، وأم حانية، لكنها محدودة المواهب في التدبير المنزلي. أما ما سوف يثير دهشة قرّائي فهي أنها شديدة القناعة في الحب، فهي عذراء قبل الزواج، وعفيفة بعده، لا شيء يعكّر هدوءها، تمضي حياتها في التطريز وإدارة شؤون بيتها حسب كفاءتها وإن لم تبلغ مستوى طيباً غالباً.

على أن الخطأ أن يُقال إن المرأة حبيسة الدار، فجميع النساء يخرجن في جميع ساعات النهار والليل مثل الرجل، ويتنزهن وحيدات، وفي

---

(١) من كتاب «المصريون».

رفقة صديقاتهن، يقمن بزيارات ويستقبلن زيارات بانتظام، . . . ها نحن أولاً بعيدون عن الصورة المعتمة التي رسمها لحياتهن الدوق داركور حين قال: «إننا لا نتصور عقاباً نُنزله الأشرار في بلادنا أقسى من أن نفرض عليهم مثل تلك الحياة».

ولكن فلنوضح الأمور. إنني أحتقر ادّعاء النساء وتخلقهن لكنني نصير متحمس لأخذ المرأة قدراً نسبياً من التعليم، إنني أنعي تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق، يجب أن تعرف المرأة دائماً ما يكفي لكي تُلقّن أبناءها مبادىء الأخلاق والفضيلة، ولتقدّم لهم شرحاً علمياً للأشياء التي تُحيط بهم، يجب أن تعرف دائماً كيف تُجيب، دون أن تُخطىء، على تساؤلات الطفولة التي لا تنقطع. إنني أتمنى أن يُعمم هذا التعليم عندنا فبدونه لا يمكن أن نأمل في وجود مواطنين صالحين، وإنني في هذه النقطة أُوافق تماماً دوق داركور ولا أمتنع عن الاعتراف بدونية مستوى المرأة المصرية عن مستوى المرأة الأوربية.

لقد سبق أن قلت إن للنساء حرية السلوك المطلقة، فإذا نظرنا من وجهة نظر أخرى لرأينا أن الوضع الذي أعطاه الإسلام للمرأة هو أكثر تميزاً مما تتمناه. فهي كزوجة تتمتع بجميع حقوقها المَدَنية، فلها الأهلية القانونية لممارسة أي عمل من أعمال الإدارة أو نقل الملكية، دون حاجة للحصول على إذن من زوجها أو تصريح من المحكمة. إنها تستمد أهليتها من شخصيتها ذاتها. وليست للقوامة الزوجية هنا دوراً معنوياً خالصاً. فليس عليها حين تريد الشراء أو البيع أو الهبة أو تلقي منحة أو التقاضي إلاّ مشاورة نفسها هي، بينما لا تستطيع أختها الفرنسية ممارسة أي عمل من ذلك إلاّ إذا راق لسيدها وزوجها أن يأذن لها بذلك. والمرأة الفرنسية حين تتزوج تصبح كائناً ناقصاً، وترتد إلى

الطفولة ثانية، والقانون يعدّها ناقصة الأهلية ويضعها تحت وصايته، إنها باختصار محرومة من ممارسة إدارة ثروتها الخاصة.

إن الشيء الوَحيد المطلوب توافره في الفتاة المسلمة لكي تجد زوجاً جديراً بها، هو أن تكون فاضلة حسنة الخُلق، ومع ذلك فإن أكثر الفتيات فقراً يظفرن بزوج طيّب وأحياناً يسعدن بزوج لم يكنّ يحلمن به.

وإنني أنهي حديثي بأن أضيف إلى كل هذا: إن تشريعنا يستلهم الحديث السامي الذي يقول فيه محمد: «الجنّة تحت أقدام الأمهات» لا يمكن أن يكون، مهما قيل، تشريعاً بربرياً، ولا يمكن أن يقرّ بأيّة صورة عبودية للمرأة.

الإمام محمد عبده
أخلاقه وفضائله وإمامته(١)

سادتي: إن كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح، والكمال المُطلق لا يوجد في هذا العالم، ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها فتنمو زهرة الجمال فيها نمواً عجيباً وتتكاثر فروعها وتمتد طولاً وعرضاً ولا تترك محلاً لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها.

ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس إمامنا العزيز، نفس خُلقت على أحسن شكل، زيّنها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثالاً في الجمال يجب أن نضعه دائماً أمامنا لنعلم منه مقدار ما يصل الجهد في العمل عند رجل اقترب من سن الستين وكان يُطالع ويتعلّم ويُعلّم ويفتي ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين ومجلس الأوقاف الأعلى ويترأس على (الجمعية الخيرية الإسلامية) ويضع المشروعات للأزهر وللمحاكم الشرعية ويمتحن طلبة العلم وتلامذة المدارس ويؤلف الرسائل الدينية وينشر المقالات الفلسفية ويُدافع عن الدين إذا طعن عدو عليه ويُراسل علماء المسلمين في جميع الأقطار التي يسكنونها ويتخابر مع رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده، وكان مع كل ذلك يجد وقتاً ليزور أصحابه ويشاركهم في جميع أفراحهم وأحزانهم.

---

(١) ألقى قاسم أمين هذه الكلمة في تأبين المرحوم الإمام محمد عبده، في ذكرى مرور أربعين يوماً على وفاته (٢٠ أغسطس ١٩٠٥ م).

ونتعلّم منها أيضاً مبلغ ارتقاء الخلق في إنسان أجهد نفسه وهذّبها وربّاها حتى أرسلها إلى أقصى ما تصل إليه نفس بشرية من الجمال والكمال.

بلغت فيه طيبة النفس إلى درجة تكاد تكون غير محدودة. كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه ويسعى إلى كل نفع للغير، عام أو خاص. كان ملجأ للفقراء واليتامى والمظلومين والمصابين بأي مصيبة، وأهل الأزهر الذين هم أكثر الناس احتياجاً إلى المساعدة لأنهم في وسط المدينة الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم في ميدان حياتنا الجديدة، يبذل إليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الأمور بهمّة لا تعرف الملل كأنما كان يسعى لأعز إنسان لديه يسعى مرة ومرتين وثلاثاً إلى أن يقضي حاجتهم، وهم جميعهم في نظره مستحقون، سواء كانوا كذلك في الحقيقة أم لا، بل كان يسعى إلى صاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه في ترويج عبارات القذف والنميمة التي لم تنقطع عنه يوماً مدة حياته.

لا يصل الإنسان إلى هذا الخُلق العظيم إلاّ إذا ربّى نفسه على أن تتغلّب على الغرائز القبيحة المُلازمة للطبيعة البشرية وصار حاكماً عليها يحاسبها على كل عمل أو نزعة أو فكرة أو خاطر مما يرد عليها. كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقاً، وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في إصلاح فاعله، كان متفقاً مع فلاسفة العصر على أن الخير لا يتولّد إلاّ من الخير والشر لا ينتج إلاّ من الشر[1].

---

(١) د. محمد عمارة/ الأعمال الكاملة لقاسم أمين ص ٣٥٠.

تحرير المرأة

. . . سبق الشرع الإسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الأمم، وخوّلها كل حقوق الإنسان واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الأمور المَدَنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير أن يتوقف تصرفها على إذن أبيها أو زوجها. وهذه المزايا التي لم تصل إلى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات كلها تشهد على أن من أصول الشريعة السمحاء احترام المرأة فوضعت عنها أحمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الأولاد خلافاً لبعض الشرائع الغربية التي سوّت بين الرجل والمرأة في الواجبات فقط وميّزت الرجل في الحقوق.

والميل إلى تسوية المرأة بالرجل في الحقوق ظاهر في الشريعة الإسلامية حتى في مسألة التحلل من عقدة الزواج فقد جعلت لها في ذلك طرقاً جديرة بالاعتبار[1].

. . . من احتقار الرجل للمرأة أن يملأ بيته بجَوارٍ بيضٍ أو سود أو بزوجات متعدّدة يهوى إلى أيهن شاء مُنقاداً إلى الشهوة مسوقاً بباعث من الترف وحب استيفاء اللذّة غير مبالٍ بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما أوجبه عليه من العدل فيما يأتي.

---

(١) تحرير المرأة ص ١٥.

من احتقار المرأة أن يطلّق الرجل زوجته بلا سبب.

من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه.

من احتقار المرأة أن يسجنها في منزل ويفتخر بأنها لا تخرج منه إلّا محمولة على النعش إلى القبر.

من احتقار المرأة أن يُعلن الرجال أن النساء لسنَ محلاً للثقة والأمانة[1]...

... ففي رأيي أن المرأة لا يمكنها أن تدير منزلها إلّا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والأدبية فيجب أن تتعلم كل ما ينبغي أن يتعلّمه الرجل من التعليم الابتدائي على الأقل حتى يكون لها إلمام بمبادىء العلوم التي يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يُوافق ذوقها منها وإتقانه بالاشتغال به متى شاءت.

فإذا تعلّمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد وأجالت النظر في تاريخ الأمم ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وكانت حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية استعدّ عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرافات والأباطيل التي تفتك الآن بعقول النساء. وعلى من يتولّى تربية المرأة أن يُبادرها من بداية صباها بتعويدها على حبّ الفضائل التي تكمل بها النفس الإنسانية في ذاتها. والفضائل التي يظهر أثرها في نظام الأمة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة في

---

(١) تحرير المرأة ص ١٧.

نفسها: ولا يتم ذلك إلاّ بالإشارد القولي والقدوة الصالحة[1].

. . . على أن التعليم في حدّ ذاته هو في كل حال حاجة من حاجات الحياة الإنسانية وهو الآن من الحاجات الأولى في كل مجتمع دخلت فيه المدَنية، وأصبح العلم هو الغاية الشريفة التي يسعى إليها كل شخص يريد أن يُحصّل سعادته المادية والروحية.

ذلك لأن العلم هوَ الوسيلة الوحيدة التي يرتفع بها شأن الإنسان من منازل الضعة والانحطاط إلى مراقي الكرامة والشرف. ولكل نفس حق طبيعي في تنمية ملكاتها الغريزية إلى أقصى حدّ ترمي إليه باستعدادها. وقد جاءت الشرائع الإلّهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما تخاطب الرجال.

والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات والفلسفة العالية، كل ذلك يستلفت من المرأة مثل ما استلفته من الرجل. فأي نفس شريفة لا تشتاق إلى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلباً للحقيقة وللسعادة في الدنيا والآخرة؟ وأي فرق بين الرجل والمرأة في هذا الشوق ونحن نرى أن الصبيان من الذكور والإناث يستوون في الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم، وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث وربما كان الولع بذلك في الأنثى أشدّ منه في الذكر[2].

---

(١) تحرير المرأة ص ٢٠.

(٢) تحرير المرأة ص ٢٢.

بالنسبة للوظيفة العائلية

. . . فيكفي لكل إنسان مُتفكّر أن يتأمل في حالة عائلته ليتأكد أن استمرار الحال على ما هي عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله.

إني أكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التي وردت عليّ بالتجربة، وأخذت بمجامع خاطري، ولا أريد أن أذكر شيئاً منها لعلمي أنها ما تركت ذهناً حتى طافت به، ولا خاطراً حتى وردت عليه. فإن مثار هذه الحوادث جميعها هو شيء واحد، وهو المرض الْمُلِم بجميع العائلات، لا فرق بين فقيرها وغنيها، ولا بين وضيعها ورفيعها، وهو جهل المرأة. فقد تساوت النساء عندنا في الجهل مُساواة غير محبوبة، ولا يظهر اختلافهن إلاّ في الملبس والحلي. بل يمكن أن يُقال، إنه كلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر زاد جهلها. وإن آخر طبقة من نساء الأمة وهي التي تسكن الأرياف هي أكملهن عقلاً بنسبة حالها.

المرأة الفلاّحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاّح، مداركهما في مستوى واحد، لا يزيد أحدهما عن الآخر تقريباً، مع أننا نرى أن المرأة في الطبقة العليا أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة. ذلك لأن الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم، ولم تتبعهم نساؤهم في هذه الحركة، بل وقفن في الطريق. هذا الاختلاف هو أكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معاً.

فالرجل المتعلّم يحب النظام والتنسيق في منزله. وله ذوق مهذّب

يميل إلى الأشكال اللطيفة والإحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة، ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الأفراد حداً ينتهي إلى إهمال الأمور المادية. يفهم بكلمة، ويود لو يفهم بالإشارة. يسكت في أوقات ويتكلم في أخرى ويضحك في غيرها. له أفكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه. له لذائذ وآلام معنوية، فيبكي مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس. وفي كل فكرة تتولد في ذهنه وإحساس يؤثر على أعصابه يود أن يجد بجانبه إنساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه. وهذا ميل طبيعي يجده كل شخص من نفسه. فإذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه وأحزانه عنها، ولم يلبث أن يرى نفسه في عالم وحده وامرأته في عالم آخر. إذ هي تعتبر أن الرجل ما خُلق في هذه الدنيا إلّا ليشتري لها الأقمشة الغالية والجواهر النفيسة وليصرف أوقاته في مُلاعبتها كأنه صورة أكبر من التي كان يشتريها لها والدها في صغرها لتلهو بها.

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر إلى نفسه احتقارها، واعتبرها من الاعدام التي لا أثر لها في شؤونه، وهي متى رأته أهمل وأغضى ضاق صدرها وظنت أنه يظلمها وبكت سوء حظها الذي ساقها إلى رجل لا يقدرها قدرها، ونبتت البغضاء في قلبها. ومن ثم تبتديء عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالاً منها. عيشة يرى كل منهما فيها أن صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة.

ولا يظن أن هذا يختص بذوي الأخلاق الفاسدة من الرجال والنساء، فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الإحساس ولكن العيشة بينهما خصام مستمر، ولا ذنب على أحدهما، بل الذنب على اختلافهما في التربية كما تقدم. ومنتهى هذه الحالة ـ إن استمر الاقتران

بينهما ـ أن يُميت أحدهما حقه في سبيل راحة الآخر، أو يجر كلاهما قيده الثقيل إلى آخر العمر. ولكن مهما كان حال الزوجين ـ وهما ما ذكرنا من الوصف ـ فلا سبيل إلى ارتباطهما برابطة المحبة إذا أخذت بمعناها الخاص، ولا خسران في الدنيا يبلغ فقد لذّة الحب بين الرجل والمرأة.

جاء في القصص الدينية المسطورة في الكتب السماوية أن الله خلق حوّاء من ضلع آدم. وفيه، على ما أظن، رمز لطيف إلى أن الرجل والمرأة يكونان مجموعاً واحداً لا يتم إلاّ باتحادهما، ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل، وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على أن المرأة والرجل هما شقّان لجسم واحد، مُفتقر بعضه إلى بعض ليتم له الكمال بالاجتماع.

وهذا الانجذاب الغريزي الذي أوجده الله في كل المخلوقات الحيّة ـ حتى النبات التي يشاهد في بعضها حركة محسوسة بين الذكر والأنثى إذا آن وقت التلقيح على طريقة حار في تفسيرها علماء الطبيعة ـ هو أهم عنصر يدخل في تركيب الحب. وهو يكفي لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ولا يختلف في الإنسان عن الحيوان. أما أصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضاً كأصول كل الأشياء تقريباً.

وإنما يرجح قسم من العلماء أنه سيال يتولّد في المراكز العصبية، فمتى وُجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعروا بضرورة اقترابهما. فإذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزّة الفرح. تتكلم عيونهما وتترجم عن الاضطرابات التي تهيج قلوبهما قبل أن ينطق اللسان، كأن روحيهما صديقتان افترقتا في عالم قبل هذا العالم وأخذت كل واحدة منهما تبحث عن الأخرى حتى إذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التي كانت تنشدها، وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال وأماني أكبر من مجرد التلاقي،

فتختلطان، ويحدث بينهما شبه العهد على أن لا يفترقا. ترى كل واحدة منهما أن لا سعادة لها إلاّ باتصالها بالأخرى.

لكن هذا الانجذاب المادي لا يلبث مدة حتى يأخذ في التلاشي ويتناقص شيئاً فشيئاً. فمهما كانت شدّة الرغبة عند أول التلاقي فهي صائرة إلى الزوال في زمن يختلف طوله وقصره باختلاف الأمزجة. وتضمحل تلك الآمال وتتساقط تلك الأماني ويكاد التقاطع يحل محل التواصل لولا ما اختصّ الله به الإنسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذّة الوصال بما يستجلي من بهاء الأرواح وسناء العقول. فهو يضم إلى المنظر البديع الجسداني منظراً آخر قد يكون أبدع في اعتباره وهو المنظر الروحاني العقلي. وكثيراً ما يستبدل لـذّة الحسّ التي لا بقاء لها بلذّة العقل والوجدان التي لا تنتهي أطوارها ولا تفنى مظاهرها. يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر. ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كأنه طُبع لها إذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل، ورقة الذوق، وبهاء الفطنة، ونفاذ العقل، وسعة العرفان، وحُسن التدبير، والحذق في العمل، مع المحافظة على النظام فيه، ونظافة الباطن والظاهر، وحنو القلب، وصدق اللسان، وطهارة الذمّة، وعظم الأمانة، والإخلاص في الولاء، ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التي ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية. ووجدان اللذّة بهذه المعاني عنصر آخر يدخل في تركيب الحب أيضاً ـ ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام.

وإليك بياناً يزيد في فهم ما تقدم:

اللذّة الجسمانية المتحدة في النوع مهما تخالفت في الأفراد فهي دائماً واحدة. فإن أفراد اللذّة المتحدة في النوع تتشابه إلى حد تكاد لا تتميز

إلاّ باختلاف الزمان أو المكان مثلاً، فما يحصل منها أولاً هو ما يحصل ثانياً وثالثاً ورابعاً، وهكذا.

ومن البديهي أن تكرار لذّة بعينها مهما كانت سواء كانت لذّة نظر أو لذّة سمع أو لذّة ذوق أو لذّة لمس يفضي في الغالب إلى فقد الرغبة فيها، فيأتي زمن لا تتنبه الأعصاب لها، لكثرة تعودها عليها، والأمر بخلاف ذلك بالنسبة للذّة المعنوية.

أود أن كل مصري يرى أن مسألة التربية عندنا هي أُم سائر المسائل، وإن كل مسألة غيرها مهما كانت أهميتها داخلة فيها.

عرف المصريون بعوائد وأخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها، تلك العوائد والأخلاق ليست معروفة في الدين، ولا هي موافقة لما يستحسنه العقلاء، حتى من المصريين أنفسهم، وقلّ ما يشاهد مثلها عند غيرهم.

وقد آن الوقت، على ما أظن، لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية تربية تُنشيء رجالاً أولي علم وأصالة رأي، يجمعون بين المعارف والأخلاق والعلم والعمل، تربية تُنقذنا من جميع العيوب التي يقذفنا بها الأجنبي في كل يوم وبكل لسان كلها ترجع، مهما اختلفت في الاسم، إلى سبب واحد وهو النقص في تربية نفوسنا. وقد اتفق جميع أهل النظر في مصر على أن التربية هي الدواء الوحيد لذلك الداء، وانتشر هذا الرأي الصائب في الكتب والجرائد وأحاديث المجالس حتى صحّ أن يُقال: إنه أصبح رأياً عاماً، وتولّد عن ذلك شعور بأن مستقبل الأمة تابع لتربيتها.

ولكن أرى همم الناس موجهة إلى التعليم ولا أرى أحداً يلتفت إلى تربية النفوس، وأرى أن الحرص على التعليم منحصر في تعليم

الذكور، مع أن تهذيب الأَخلاق مقدّم على التعليم، وتعليم البنات مقدّم على تعليم الذكور.

ولست ممن يطلب المساواة بين الرجل والمرأة في التعليم فذلك غير ضروري، وإنما أطلب الآن ولا أتردد في الطلب أن توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الأقل، وأن يُعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد مثل ما يُعتنى بتعليم البنين.

أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية وشيئاً من الخياطة والتطريز والموسيقى، ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت إليها، وربما زادتهن تلك المعارف غروراً بأنفسهن، فتظن الواحدة منهن أنها متى عرفت أن تقول نهارك سعيد باللغة الفرنساوية فقد فاقت أترابها وارتفع شأنها وسما عقلها، ولا تتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية. فتقضي حياتها في تلاوة أقاصيص وحكايات قلّ ما تفيد إلاّ في إثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح فيه طرفها وهي شاخصة إلى دخان السيجارة التي تقبض عليها.

أكثر ما تعرفه المرأة التي يُقال الآن إنها متعلمة هو القراءة والكتابة، وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى إليها، وما بقي من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء. أين هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذّى منها العقل ويتقوّى بها على مطاردة الوهم؟! لا شيء ينفع الإنسان مثل اكتسابه ما يسمى عقلاً علمياً، أريد بذلك ما يقابل التخيل الذي يعيش به صاحبه في أوهام وهواجس لا ترجع إلى حق ثابت. فإن كل مصائب الإنسان تأتي له من باب واحد وهو الخيال:

كلما تجرد الإنسان عن الأوهام والخيالات قرب من السعادة ويبعد عنها بقدر ما يبعد عن الحقيقة.

الحقيقة هي ضالّة الإنسان في العالم، ويجب عليه، أن يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب. الحقيقة هي الكنز الذي أودع الله فيه كل آمال الإنسان، لا يجدها إلاّ مَن رغب فيها ومالَ عن سواها. الحقيقة هي مشرق السعادة، لأنها الوسيلة وحدها لوصول الإنسان إلى كمال العقل والنفس. والنساء مثل الرجال في الحاجة إلى معرفة الحقيقة وإلى اكتساب عقل يحكم على نفوسهن ويرشدهن في الحياة إلى الأعمال الطيبة النافعة.

انظر إلى الطفل تجده يشتهي وينفر، ويحب ويكره، ويفرح ويحزن، ويضحك ويبكي، ويسكن ويغضب، وهو في كل ذلك إنما ينفعل بحسّ وينبعث بوهم وينقاد إلى خيال، وإذا أراد شيئاً فمنع عنه لم يستعمل للوصول إلى غرضه إلاّ شيئاً من الغش والمكر والكذب، لِمَ ذلك؟ لأن عقله ضعيف ومعارفه قليلة، ولم تصل قواه العقلية إلى درجة تتمكن فيها من القياس والموازنة بين الأعمال والرغائب والآلام حتى تحمله على الصبر أحياناً وطلب المرغوب من أبوابه ووسائله الصحيحة أحياناً أخرى، والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل، فيما ذكرنا.

سلب الرجال ثقتهم من النساء، واعتقدوا أنهن أعوان إبليس، فلا تسمع إلاّ ذمّاً لخصائلهن، وتنقيصاً لعقلهن، وتحذيراً من مكرهن، وأنا لا أُبرىء النساء الآن من هذه الصفات، ولكن أرى أن التبعة ليست عليهن بل على الرجال.

هل صنعنا شيئاً لتحسين حال المرأة؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب أخلاقها وتثقيف عقلها؟ أيجوز أن

نترك نساءنا في حالة لا تمتاز عن حالة الأنعام؟ أيصح أن يعيش النصف من أمتنا في ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئاً مما يمر حولهن، كما في الكتاب ﴿صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون﴾[1]؟! أليس بينهن أمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وزوجاتنا، وهنّ زينة حياتنا الدنيا، والجزء الذي لا يمكن فصله منّا، دمنا من دمهن ولحمنا من لحمهن؟! أليس الرجال من النساء، والنساء من الرجال، وهن نحن ونحن هن؟! أيتم كمال الرجل إذا كانت المرأة ناقصة؟ وهل يسعد الرجال إلاّ بالنساء؟!

نحن حرمنا أنفسنا من أكبر لذّة في الدنيا، وهي التمتع بمحبة ذوي القُربى من النساء.

كل منّا يذوق حلاوة الساعات التي تمر به بدون أن يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له، وتختلط أنفسنا بعضها ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع. فهذا السرور يتضاعف بلا شك إذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه أو أخته أو زوجته. ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن، ولهذا فإنّا نشفق عليهن ونحنّ إليهن ونعذرهن، ولكن لا تكمل محبتنا لهن لأن الحب التام هو ذلك التوافق، وهو معدوم.

والإنسان محتاج إلى أن يكون مُحباً وأن يكون محبوباً، ومن فضل الله عليه أن وضع بجانبه أمهات وزوجات، وغرس في قلوبهن محبته وفي قلبه محبتهن، وهذه أكبر نعمة مَنّ الله علينا بها، لأن هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة إذا صُرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا في سجن

---

(١) البقرة: ١٧١.

الحياة، وهوّنت علينا الآلام والمصائب التي لولا هذه التسلية لأفضت في بعض الأوقات بأقوى رجل منّا إلى اليأس، فعدم تقديرها قدرها، وانصراف العناية عن تنميتها وتكميلها كفران بنعم الله وتقصير في شكره.

بقي علينا أن ندفع اعتراضاً لا يمكننا السكوت عنه، لأنه في الحقيقة هو المانع الوحيد الذي اتفقت أغلب العقول على وضعه حاجزاً يحول بين المرأة والتعليم، وهو الخوف من أن التعليم يفسد أخلاقها.

رسخ في أذهان الرجال أن تعليم المرأة وعفتها لا يجتمعان، وقال الأقدمون في ذلك أقوالاً طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش والحيلة، فلو تعلمت لم يزدها التعليم إلاّ براعة في الاحتيال والخدعة واسترسالاً مع الشهوة، فحذونا مثالهم، واعتقدنا أن التعليم يزيد تفننها في المكر ويعطيها سلاحاً جديداً تتقوّى به طبيعتها الخبيثة على ارتكاب المفاسد.

أما أن المرأة الآن ناقصة العقل، شديدة الحيلة، فهذا مما لا يختلف فيه اثنان، وقد بينّا أن هذه الحالة هي أثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما أجيالاً طويلة، وأنه متى زال السبب فلا شك أن المسبّب يتبعه. وأما كون التعليم يفسد أخلاقها، فهذا ننكره ونشدّد النكير عليه، فإن التعليم - خصوصاً إذا كان مصحوباً بتهذيب الأخلاق - يرفع المرأة، ويرد إليها مرتبتها واعتبارها، ويكمل عقلها، ويسمح لها أن تفتكر وتتأمل وتتبصر في أعمالها. وإن وقع أن امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم، وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية، فقد وقع أن ألوفاً من النساء الجاهلات دنّسن

عروضهن وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادم أو خادمة أو دلالة أو جارة عجوز.

والحقيقة أن طهارة القلب في الغرائز والطباع، فإن كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحاً وتقوى، وإن كانت فاجرة لم يزدها العلم فجوراً، وهكذا الحال في الرجال، وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لا يمنع من تعاطيه. فقد قال الله في شأن كتابه: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلاّ الفاسقين﴾[1].

فأثر التعليم لا يمكن أن يكون ضرراً محضاً، ولا يمكن أن يكون منشئاً حقيقياً لضرر. والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور أكثر مما تخشاه الجاهلة، ولا تقدم بسهولة على ما يضر بحُسن سمعتها، بخلاف الجاهلة فإن من أخلاقها الطيش والخفة. وأذكر ملاحظة واحدة تؤيد ما قدمته وهو أن نساء الإفرنج، على العموم، مهما كان حالهن في الباطن يحافظن على الظواهر، فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضاً أياماً وأشهراً ولا يكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافياً بينهما، وتراهن في الطريق سائرات مرتديات بجلابيب الجد والسكينة والوقار، يغضضن أبصارهن عن الرجال، وإن نظرن إليهم فمن طرف خفي. أما نساؤنا العفيفات فيغلب فيهن أن يكون باطنهن خيراً من ظاهرهن، ومتى رأت الواحدة منهن رجلاً نظرت إليه وتأملته: والتفتت نحوه ولوت عنقها إليه، ولا شعور لها بأن مثل هذه الحركات التي تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها. أما الفريق الآخر من النساء في بلادنا مَن طرحن العفّة وجرين مع الشهوة فلا تسل عما يصدر منهن في الطُرق والمجتمعات العامة من الأمور المُخلة بالآداب

(١) البقرة: ٢٦.

التي يستحي القلم عن أن يجري برسمها: هذا الفريق من الأجانب يصعب تمييزه عن الحرائر إلاّ ببعض أمور يعرفها أهل الخلاعة.

ثم إن البطالة التي ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كلها من لوازم حياتهن هي أُم الرذائل. إن كان نساؤنا لا يعملن شيئاً في المنازل ولا يحترفن بصنعة ولا يعرفن فناً ولا يشتغلن بعلم ولا يقرأن كتاباً ولا يعبدن الله فبماذا يشتغلن حينئذٍ؟ أقول لك، وأنت تعلم مثلي، أما ما يشغل امرأة الغني والفقير والعالِم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع إلى ما لا نهاية له ويتشكل في كل آن بشكلٍ جديد، وهو ينبوع رضاها أو سخطها على حسب الأحوال، ذلك الأمر هو علاقتها مع زوجها، فتارة تتخيل أنه يكرهها، وتارة تظن أنه يحبها، وأحياناً تقارنه بأزواجِ جاراتها فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسباً أو خاسراً، وأحياناً تجرب ميله لتعلم هل تغير أو هو باق، وأحياناً تدبر طريقة لتغيير قلبه على ذوي قرابته لتنزع منه محبتهم، إن كان ودوداً لهم، ولا تغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمات، وتراقب لحظاته عند دخول الزائرات، وتجعله دائماً موضوع الشك، ومن وسائل الاحتياط أن لا تقبل الخادمة إلاّ إذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر وبشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمن ميل زوجها إليها، ولا تستريح من هذا الشاغل إلاّ إذا أفرغته في أذن أخرى من أمثالها، فإذا فرغت من تصويره في العبارات رجعت إلى تمثيله في الخيالات وهكذا، ولهذا ترى إذا اجتمعت مع جاراتها وصواحباتها تصاعدت مع دخان السجاير وبخار القهوة زفراتها وارتفع صوتها فتقص ما بينها وبين زوجها وأقارب زوجها وأصحاب زوجها، وحزنها وفرحها، وهمّها وسرورها، وتُفرغ كل ما في صدرها حتى لا يبقى سر من أسرارها ـ ولو كان متعلقاً بالفراش ـ إلاّ وقد أخبرت فيه.

هذا إذا كانت المرأة مُحبة لزوجها، أما إذا كانت لا تميل لزوجها، أو كانت غير متزوجة، فأكرر سؤالي: بماذا تشتغل حينئذٍ؟ أما الأولى فإنها تفتكر في طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه، أما الثانية فأعظم همّها أن تشتغل كذلك بالبحث عن زوج أياً كان، ولا تضيع وقتها في حسن انتقاء الرجل الذي يصح أن يكون لها زوجاً، فإنها إنما تطلب رجلاً، ومن البديهي أن المرأة التي يكون هذا حالها إن كانت فاسدة الأخلاق ووجدت فرصة لا تتأخر عن انتهازها ولا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد أن تقدّم له أفضل شيء لديها، وهو نفسها.

وعلى خلاف ذلك يكون أمر النساء المتعلمات. إذا جرى القدر عليهن بأمر مما لا يحل لهن لم يكن ذلك إلاّ بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحوال المحبوب وشمائله وصفاته، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت، وهي تحاذر أن تضع ثقتها في شخص لا يكون أهلاً لها، ولا تسلّم نفسها إلاّ بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الأمزجة، وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف وتخفي ما في نفسها عن أخص الناس بها.

والمعوّل في كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الأخلاق التي نشأت عليها المرأة في تربيتها الابتدائية، فإن اعتادت على أن تشغل أوقاتها بالمطالعة ومزاولة الأعمال المنزلية بين أهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجد والاستقامة وغاب من بينهم كل ما يؤثر في مشاعرها أثراً غير صالح أو يهيج حسّها إلى أمر غير لائق، وتعوّدت على أنْ تقيم من عقلها حاكماً على قواها الحسيّة، كان من النادر أن تحيد عن الطريق المستقيم وأن تلقي بنفسها في غمرات الشهوات التي لا تسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم.

وبالجملة، فإنّا نرى أن تربية العقل والأخلاق تصون المرأة، ولا يصونها الرجل، بل هي الوسيلة العظمى لأن يكون في الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطُرق المحافظة عليه. وأرى أن من يعتمد على جهل امرأته كمثل أعمى يقود أعمى، مصيرهما أن يقعا في أول حفرة تصادفهما في الطريق!

حجاب النساء

سبق لي البحث في الحجاب، بوجه إجمالي، في كتاب نشرته باللغة الفرنساوية من أربع سنين مضت، رداً على «الدوق داركور»، وبينت هناك أهم المزايا التي سمح لي المقام بذكرها، ولكن لم أتكلم فيما هو الحجاب، ولا في الحد الذي يجب أن يكون عليه، وهنا أقصد أن أتكلم في ذلك.

ربما يتوهم ناظر أنني أرى الآن رفع الحجاب بالمرة، لكن الحقيقة غير ذلك، فإنني لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلاً من أصول الآداب التي يلزم التمسك بها، غير أني أطلب أن يكون منطبقاً على ما جاء في الشريعة الإسلامية، وهو على ما في تلك الشريعة يُخالف ما تعارفه الناس عندنا، لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط، والمبالغة فيما يظنونه عملاً بالأحكام، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة.

والذي أراه في هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياء، وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيّرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعاً من المقتنيات، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التي أُعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية. وبين هذين الطرفين

وسط سنبينه ـ هو الحجاب الشرعي ـ وهو الذي أدعو إليه.

إني أشعر أن القارىء الذي سار معي إلى هذه النقطة، وتبعني فيما دعوته إليه من وجوب تربية النساء، ربما يستجمع قواه لمقاومتي فيما أطلب من الرجوع بالحجاب إلى الحد الشرعي، ويستنجد جميع الأوهام التي خزنها في ذهنه أجيالاً طويلة ليدافع عن العادة الراسخة الآن. ولكن مهما استجمع من قوة الدفاع عنها ومهما بذل من الجهد للمحافظة عليها فلا سبيل إلى أن تبقى زمناً طويلاً.

ماذا تفيد الشجاعة والثبات في المحافظة على بناء آل أمره إلى الخراب والتهدم، وقد انقضّ أساسه وانحلت مواده، ووصل حاله من الاضمحلال إلى أنك ترى في كل سنة تمر جزءاً منه ينهار من نفسه؟ أليس هذا كله صحيحاً؟ أليس حقاً أن الحجاب في هذه السنين الأخيرة ليس كما كان من عشرين سنة؟ أليس من المشاهد أن النساء في كثير من العائلات يخرجن لقضاء حاجاتهن ويتعاملن بأنفسهن مع الرجال فيما يتعلق بشؤونهن ويطلبن ترويح النفس حيث يصفو الجو ويطيب الهواء، ويصحبن أزواجهن في أسفارهم، ونرى أن هذا التغير حدث في عائلات كانت أشد الطبقات تحرجاً من ظهور النساء؟ إذا قارنا بين ما نشاهد اليوم وبين ما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيد عنّا حيث كان يشين المرأة أن تخرج من بيت زوجها، وأن يرى طولها أجنبي، وكان إذا عُرض للمرأة سفر اتخذ كل احتياط ليكون سفرها ليلاً حتى لا يراها أحد من الناس، وحيث كانت أم الرجل أو أخته أو بنته تستحي أن تجلس معه على مائدة واحدة. إذا قارنا بين هذا وذاك نجد بلا شك أن هذه العادة آخذة في الزوال من نفسها.

وكل من عرف التاريخ يعلم أن الحجاب دور من الأدوار التاريخية

لحياة المرأة في العالم. قال «لاروس»[1] تحت كلمة خمار: «كانت نساء اليونان يستعملن الخمار إذا خرجن، ويخفين وجوههن بطرف منه كما هو الآن عند الأمم الشرقية». وقال: «ترك الدين المسيحي للنساء خمارهن، وحافظ عليه عندما دخل في البلاد، فكنّ يغطين رؤوسهن إذا خرجن في الطريق في وقت الصلاة. وكانت النساء تستعملن الخمار في القرون الوسطى، خصوصاً في القرن التاسع، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريباً، واستمر كذلك إلى القرن الثالث عشر حيث صارت النساء تخفّف منه إلى أن صار كما هو الآن نسيجاً خفيفاً يُستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد. ولكن بقي بعد ذلك بزمن في اسبانيا وبلاد أمريكا التي كانت تابعة لها».

ومن هنا يرى القارىء أن الحجاب الموجود عندنا ليس خاصاً بنا، ولا أن المسلمين هم الذين استحدثوه، ولكنه كان عادة معروفة عند كل الأمم تقريباً ثم تلاشت طوعاً لمقتضيات الاجتماع وجرياً على سُنّة التقدم والترقي. وهذه المسألة المهمة يلزم البحث فيها من جهتها الدينية والاجتماعية.

* * *

(١)
الجهة الدينية

لو أن في الشريعة الإسلامية نصوصاً تقضي بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب عليّ اجتناب البحث فيه، ولما

---

(١) المراد بيير لاروس (١٨١٧ ـ ١٨٧٥ م) عالم النحو الفرنسي واللغوي صاحب القاموس الذي اشتهر باسمه.

كتبت حرفاً يُخالف تلك النصوص مهما كانت مُضرّة في ظاهر الأمر، لأن الأوامر الإلٰهية يجب الإذعان لها بدون بحث ولا مناقشة، لكننا لا نجد نصاً في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، وإنما هي عادة عرضت عليهم من مُخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين والدين براء منها. ولذلك لا نرى مانعاً من البحث فيها، بل من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة في شأنها وحاجة الناس إلى تغييرها..

جاء في الكتاب العزيز:

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم. ذلك أزكى لهم. إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾[1].

أباحت الشريعة في هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام الأجنبي عنها، غير أنها لم تسم تلك المواضع، وقد قال العلماء أنها وكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان معروفاً في العادة وقت الخطاب. واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية، ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخرى كالذراعين والقدمين. جاء في ابن عابدين[2]:

(١) النور: ٣٠ وما بعدها.

(٢) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن حامد (١١٩٨ ـ ١٢٥٢ م) صاحب =

«وعورة الحرّة جميع بدنها حتى شعرها النـازل، في الأَصح، خـلا الوجه والكفـين والقدمـين، على المعتمـد. وصوتهـا، على الـراجح، وذارعيها، على المرجوح، وتُمنع المرأة الشابة من كشف الوجه لا لأنه عورة بل لخوف الفتنة، كمسه وإن أمن الشهوة، لأَنه أغلظ، ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة، كما يأتي في الحظر. ولا يجوز النظر إليه بشهوة كوجه أمرد، فإنه يحرم النـظر إلى وجهها ووجـه الأَمرد إذا شـك في الشهوة، أما بدونها فيُباح ولو جميلاً»[1] .

وذكر في [كتاب الروض][2] فـي المذهب الشافعي: «نظر الـوجه والكفين عند أمن الفتنة من المرأة للرجل وعكسه جائز. ويجوز نظر وجه المرأة عند المعاملة وعند تحمل الشهادة وتكلف كشفه عند الأَداء»[3].

وجـاء في [تبيـين الحقـائق شرح كنـز الـدقـائق] لعثـمان بن عـلي الزيلعي[4]: «وبدن الحُرّة عورة إلاّ وجهها وكفيها وقدميها لقوله تعالى ﴿ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها﴾ والمُراد محل زينتهن وما ظهر منها الـوجه والكفـان. قالـه ابن عبّاس وابن عمـر، وأستثني في المحضر الأَعضاء الثلاثة للابتلاء بأبدائها لأَنه عليه الصلاة والسلام نهى المحرمة

= كتاب [رد المحتار على الدر المختار] في فقه المـذهب الحنفي، وهو الـذي يقتبس منه المؤلف هنا.

(١) صحيفة ٣٣٦ جـ ١.

(٢) هو كتاب [روض الـطالب] للقاضي شرف الـدين أبو محمـد إسماعيـل بن أبي بكر بن عبد الله، المعروف بابن المقـرى، اليمني. وهو مختصر لكتـاب [الروضة] للنووي.

(٣) صحيفة١٠٩، ١٠٤، جزء ٢.

(٤) هو أبو محمد فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي (المتوفي سنة ٧١٣ هـ) فقيه حنفي مات بمصر، وكتابه هذا هو شرح لكنز الدقائق للنسفي.

عن لبس القفازين والنقاب. ولو كان الوجه والكفان من العورة لما حرم سترهما بالمخيط. وفي القدم روايتان، والأصح أنها ليست بعورة للابتلاء بإبدائها».

وحكم الوجه والكفين، وأنها ليست بعورة معروف كذلك عند المالكية والحنابلة. ولا نُطيل الكلام بنقل نصوص أهل هذين المذهبين.

ومما يُروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فقال لها: يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلاّ هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه». وورد أيضاً في [كتاب حُسن الأسوة] للسيد محمد صدّيق حسن خان بهادر: «وإنما رخص للمرأة في هذا القدر لأن المرأة لا تجد بداً من مُزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والزواج. وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن».

خوّلت الشريعة للمرأة ما للرجال من الحقوق، وألقت عليها تبعة أعمالها المدنية والجنائية، فللمرأة الحق في إدارة أموالها والتصرف فيها بنفسها. فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من غير أن يراها ويتحقق شخصيتها؟

المرأة الجديدة
طُبع سنة ١٩٠٠

. . . . وقال: «إن حب المرأة للخير من المألوفات المشهورة، أما الرجل فيسود عنده حب النفس، لذلك تراه يفتكر أولاً في نفسه ثم في أولاده، بخلاف المرأة، فهي تفكر أولاً في غيرها ثم في نفسها، فهمّ الرجل أن يكون سعيداً، وهمّ المرأة أن تجعل الغير سعيداً. وهذا الإحساس يُشاهد في جميع أعمال الحياة، صغيرها وكبيرها، وأعظم مثال لإيثار المرأة غيرها على نفسها هو حب الأم لولدها، فهي تحبه أكثر مما يحبه أبوه، وتحبه مهما كانت عيوبه، بل يمكن أن يُقال إنه كلما كان ولدها سيىء البخت زاد حبها له، والأب على عكس ذلك».

فالمرأة في رأي أعظم العلماء وأدقهم بحثاً مساوية للرجل في القوى العقلية، وتفوقه في الإحساسات والعواطف، وإنما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما في العقل لأن الرجال اشتغلوا أجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوّت عزيمتهم بالعمل بخلاف النساء فإنهن حُرمن من كل تربية، فما يُشاهد الآن بين الصنفين من الفروق هو صناعي لا طبيعي.

لا نريد بهذا التساوي أن كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه، ولكنّا نريد أن مجموع قواها وملكاتها يكافىء مجموع قواه وملكاته، وإن كان يوجد خلاف كبير بينهما، لأن مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين عن الآخر.

فعلى أي دليل علمي يستند الرجال لاستعباد النساء، وبأي حق جاز لهم أن يحرموهن من حريتهن؟ لنفرض جَدَلاً أن عقلِ المرأة أقل من عقل الرجل، فهل نقصان العقل في شخص يبيح أن يُجرّد من حريته؟ أما يوجد بين أفراد الرجال اختلاف في العقول أكبر من الاختلاف الموجود الآن بين الرجال والنساء؟ أليس عقل المصري يختلف باختلاف طبقات الأمة المصرية، ومع ذلك نرى جميع الرجال متساوين في تمتعهم بحريتهم البدَنية؟ ألا يوجد بين نسائنا المصريات من هنّ أكبر عقلاً وأكمل أخلاقاً من أزواجهن أو آبائهن أو أبنائهن؟

لا يصح أن يكون اختلاف العقول سبباً لتجريد الإنسان عن حريته بل الذي يجر إليه الاختلاف إنما هو أن يعلو فكر على فكر فيقوده بقوة الإقناع أو تسود إرادة على إرادة بقوة الاستمالة حتى تسخرها على طوع منها.

وما قررته الشريعة الإسلامية من حقوق المرأة ـ وقد أشرنا إليه في ما تقدم ـ يقودنا إلى أن هذه السلطة الأدبية هي التي ترمي إليها الآية الشريفة التي ذكرت أن الرجال قوّامون على النساء، وقد نحت الشرائع الأوروبية هذا النحو فخوّلت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمّتها سلطة الزوجية، ومع ذلك فكل إنسان يرى النساء الغربيات متمتعات بحريتهن.

لنفرض جدلاً أيضاً أن حجاب النساء وسيلة لصيانتهن عن الفساد فهل يكفي ذلك لحرمانهن من حريتهن؟

إذا كانت معاملة الرجال للنساء مجلبة للفساد فلماذا تُداس حرية المرأة وتُحترم حرية الرجل؟ هل يختلف نظر العدل بالنسبة إلى الرجل والمرأة وهل يوجد حقّان حق للرجل وحق للنساء؟ أليسَ كل ذي اختيار

موكولاً إلى اختياره يتصرف به كيف يشاء متى لم يخرج في عمله عمّا حدّده له الشرع والقانون؟

نرى أن مسئولية المرأة في هذه الدنيا، وفي الآخرة، لا تقل أمام الشرع عن مسئولية الرجل، ونرى أن القوانين لا تُعافيها من العقوبات إذا ارتكبت جريمة، ولا تقضي بتخفيف عقوبتها، بل نرى أن الرأي العام جسم مسئوليتها حتى جعلها أشد من مسئولية الرجل، فإذا استهوى رجل عمره أربعون سنة بنتاً عمرها خمسة عشر سنة، وانتهز فرصة ضعفها وفسق بها، يحكم الرأي العام أن هذه البنت الصغيرة هي التي فقدت شرفها، ويُهمل شأن الرجل كأنه لم يأتِ منكراً! أليس ذلك لأن الشرع والرأي العام يعترفان أن المرأة مسئولة عن أعمالها؟ فإن كانت مسئولة بهذه الدرجة أليسَ ذلك لأن الشرع والرأي العام يعترفان أيضاً بأنها حرّة مختارة؟

لا أظن أن عقلاً يقبل أن تُعتبر المرأة إنساناً كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت، ثم تُعتبر أنها ناقصة العقل، بحيث تحرم من حريتها في شؤون الحياة العادية!

اعتقاد الرجل أن امرأته إذا مُنحت حريتها تسيء استعمالها لا يبيح له حرمانها منها، لأنه لا يُباح لإنسان أن يتعدّى على آخر بسلب حريته والسيطرة على إرادته بحجة أنه يريد منعه من ارتكاب خطيئة، ولو جاز لدفع ضرر محتمل الوقوع تجريد الإنسان عن حريته لوجب وضع تسعين في المائة من الرجال تحت قانون الحجاب منعاً لهم من الفساد!

بل لو قبلت المرأة أن يُوضع عليها الحجاب لم يُعتبر قبولها هذا التزاماً صحيحاً بحيث يمتنع عليها بعد ذلك أن تحل عقدته، لأنه التزام باطل، لمنافاته للطبيعة البشرية والقواعد الشرعية.

على أن ما قيل ويُقال من أن حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفّة كله كلام لا أصل له، تبطله التجارب وينبذه العقل، إذ التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على أن حرية النساء تزيد في ملكاتهن الأدبية وتبعث فيهن إحساس الاحترام لأنفسهن وتحمل الرجال على احترامهن.

ولا نذهب في تأييد هذا الرأي مذهب غيرنا بالإتيان بإحصاء مخترع لا حقيقة له نشره بعضهم في الجرائد الهزلية تفكهة للقُرّاء، ونسَبَ فيه إلى أحد العلماء أنه شاهد أن المرأة الألمانية تخون زوجها سبع مرات! والبلجيكية ست مرات وأربعة أخماس المرة! والهولندية أربع مرات! والطليانية مرة وخمسة أسداس! والفرنساوية مرة واحدة! وهكذا إلى أن وصل إلى التركية، والمراد بها الشرقية، فقال: إنها لا تخون زوجها إلاّ عشر المرة الواحدة!

فقد انتهى الهذيان بالمعتمد على مثل هذا الإحصاء إلى الاعتقاد بأن ما نُشر في تلك الجريدة على سبيل الهَزَل هو من (الأبحاث العلمية الدقيقة المستندة على الأرقام)، ولم يمر بفكره أن الحصول على إحصاء في مثل هذا الموضوع هو من الأمور المستحيلة، لأن وقائع الزنا لا يمكن إحصاؤها إلاّ إذا وصلت إلى المحاكم، ومعلوم أنه لا يصل إلى المحاكم منها إلاّ النادر.

ولا نسند رأينا أيضاً إلى قضايا مُسلّمة تؤخذ من غير دليل، كما يفعل أولئك الذين يدعون أن المرأة متى جلست مع الرجال في مكان واحد مدة خمس دقائق وجب محو اسمها من قائمة النساء الفاضلات! . فإن كل قضية لا ترجع إلى أحد أنواع البديهيات المعروفة عند أهل النظر لا تصح أن تكون مقدمة لدليل، أولئك جماعة لو طولب الواحد منهم

بدليل على ما يقول لما وجد في خزانة مخه إلاّ أن الرجل والمرأة هما دائماً في طوع شهواتهما، هكذا شأنهم، يستعملون من أنفسهم الأخلاق التي جُبلوا عليها، ويعتقدون أنها أخلاق الإنسانية كلها، فهم في نظر أنفسهم يُمثلون الرجل من حيث هو، والمرأة على حالتها المعهودة اليوم تمثّل في نظرهم المرأة من حيث هي، وما دروا أن الرجال يختلفون في أخلاقهم ومزاياهم إلى ما لا نهاية له، على حسب الزمان والمكان وطُرُق التربية، وأن المرأة تختلف خلائقها وآدابها على نحو ما يختلف به الرجال.

هذا الاختلاف الذي يعرض في حياة النساء الأدبية ينشأ غالباً من اختلاف العادات.

أول شيء يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو أن تكون عفيفة، ولهم الحق في أن يطلبوا منها أن تكون متحلية بهذه الفضيلة، ولكنهم بذلوا ما في وسعهم لمحو هذه الفضيلة، وجعلها من المستحيلات، وذلك لأن نظام المعيشة عندنا يبعث في المرأة شدة الميل إلى الشهوات، فإن سجن المرأة والتضييق عليها في وسائل الرياضة يُعرّضها دائماً لضعف الأعصاب، ومتى ضعفت الأعصاب اختلّ التوازن في القوى الأدبية، هذه حقيقة يلزم أن يعترف بها كل إنسان، فإن من الحقائق الثابتة أن الجسم إذا كان قوياً وكان القلب يرسل الدم إلى جميع خلايا الجسم تشعر نفس الإنسان بقوتها، فكما لا تنهزم عند مُلاقاة المصاعب والمتاعب المادية فهي لا تضعف عن مقاومة الأهواء والنزعات الرديئة، ومن المُشَاهد أن التعب الشديد والمرض المضعف يعقبهما فتور في الجسم وانحلال في القوى يؤثران في الإرادة وفي العزيمة، فكما إذا حاول الجسم نهوضاً لا يكاد يستطيعه فيسترسل مع الميل إلى الراحة كذلك تشعر

النفسِ بعجزها عن ضبط أهوائها ومقاومة كـل ميل تقتضي مـدافعته جهداً ومشقة.

لا شك أن قوة البُنية وسلامة الأعصاب هما من أهم أعوان الإنسان على ضبط نفسه، وإن ضعف البُنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء.

فإن كانت حاجة إلى الاستشهاد برأي بعض العلماء على ما نقول فإني أنقل ما قاله رجل أجاد درس علم التربية وهو الدكتور فلوري.

قال في كتابه المُسمّى [جسم وروح الولـد]: «إن آلة العقـل هي المخ، فكل انحراف يعرض في الصحة البدنية يؤثر فيه، فإذا استوفينا شروط صحـة الجسم أمكنا أن نحصـل سلامـة الإرادة وقـوة الحكم ونحسن في أخلاق المرء وآدابه».

فالنساء المسجونات يحسبن قبل كل شيء نساء مريضات، ولهذا فهن أشد تعرضاً لمطاوعة شهواتهن من النساء اللواتي يتمتعن بحريتهن!

فإذا اقترن الحجاب بالبـطالة، ولا يمكن انفكـاك الحجاب عنهـا، تبعهما قتل كل فضيلة في نفس المرأة.

هـذا التلازم بـين الحجاب والبـطالة لا يـروق لبعضنا التصريـح بوجوده، وربما يعجبهم أن يُقال إن نساءنا المحجبات عندهن واجبات عديدة تشغل أوقاتهن، وإن منحهن الحرية المطلوبة قد يكون سبباً في تحويل عنايتهن عن هذه الواجبات وتوجيهها إلى أمور لا يعود منها نفع على المرأة ولا على بيتها. ولكن نحن لا يهمنا إلاّ تقرير الحقيقة كما هي، نحن نقول إن وجود الواجبات شيء والقيام بها شيء آخر وإن نساءنا اللاتي لا عمل لهن ولا شأن لهن خارج المنزل لا يجدن من الوقت ما

يسع القيام بواجباتهن لأزواجهن وأولادهن، وإنهن تركن شؤون الحياة البيتية إلى غيرهن، بخلاف النساء الغربيات التي اتسعت دائرة أعمالهن حتى كادت تساوي دائرة أشغال الرجال، فإنهن يجدن مع ذلك الوقت الكافي لتأدية جميع واجباتهن المنزلية، وما سبب ذلك إلاّ أن العمل يدعو إلى العمل والراحة تدعو إلى الراحة.

ثم إن الطريقة التي يُربى بها الأطفال في البيوت لها مدخل عظيم في انحطاط الآداب أيضاً.

يمكنني أن أُجاهر هنا، بلا تردد، أن صبياً من أولادنا، ذكراً كان أو أنثى، لا يزيد عمره من عشر سنوات قد يحشد إلى ذهنه من الألفاظ والصور المُحرّكة للشهوة، وينمو في قلبه من الميل مع ما تدعو إليه غريزة التناسل، ويبلغ من ذلك ما لا يبلغه شاب أو شابة في سن الخامسة عشر أو الثامنة عشر من أبناء البلاد الأوروبية.

وليس لاختلاف الإقليم دخل في ذلك، وإن كان له أثر فهو أثر ضعيف، وإنما الأثر الحقيقي هو لطريقة تربية الأطفال.

لو كان الرجال الأذكياء والمتعلمون منّا يلاحظون ما يقع ويُقال أمامهم كل يوم، لو كانوا يفتكرون في ما يعرض على أعينهم وآذانهم في الطُرُق والمجتمعات في كل آن لاتفقنا جميعاً في هذه المسألة وغيرها من المسائل الأخرى التي لا سبب لاختلاف الرأي فيها إلا اهتمام بعضنا بالانتصار على بعض وعدم اهتمام أحد منا بأن يفهم ما يقول الآخر.

لو أمكننا أن نفصل جميع المؤثرات المادية والأدبية التي تتكوّن منها إحساسات الطفل وأمياله لرأى القارىء بنفسه أن البنت التي تُربى في عائلة مصرية لا يمكن أن تنمو فيها خلال الفضائل، ويكفينا أن نذكر

هنا أمثالاً من هذه المؤثرات التي تقع في العائلات المتوسطة التي هي أحسن الطبقات أدباً:

فمنها أن أقارب الأطفال لا يتحاشون غالباً عن تسمية كل شيء باسمه الحقيقي، ويذكرون الوقائع التي تجري بين الزوج وزوجته أمامهم بدون أن يخطر على بالهم أن يأمروهم بالخروج في هذا الوقت إلى مكان آخر، وأيضاً أول شيء يأتي على لسان الزائر إذا صادف بنتاً صغيرة في بيت هو أن يسألها إذا كانت تريد أن تتزوجه أو تتزوج بابنه الصغير، وإذا كانوا عدّة زائرين سألها كل واحد عمن أعجبها من بينهم!

ومنها حضور الأطفال في حفلات الأفراح، ومشاهدتهم رقص الباغيات، وسماعهم الأغاني التي تدور كلها على الحب الشهواني.

بمثل هذه المناظر وبمثل تلك العبارات تتنبه البنت الصغيرة إلى ما كان يجب أن تغفل عنه، وينبت فيها الميل الشهواني.

ثم إذا عرض أن بنتاً عانقت صبياً في أثناء اللعب يوجه اللوم عليها من أهلها، ويُقال لها إنها أتت أمراً فاضحاً، فإذا سألت البنت: أي عيب في ما فعلت؟ أجابها المسؤول بما يعن له وما تسمح له به تربيته، وكلما تقدّمت الصبية في السن زاد الحجر عليها وإبعادها عن مخالطة الرجال، وفي هذا من استلفات ذهنها إلى ما بين الصنفين من الاختلاف ما يضطرها إلى البحث في هذا الأمر الذي يشغلها ويشغل أهلها إلى هذا الحد، فتسأل عنه مَن تثق به من زميلاتها، فتتعلم منهن بعضه، وتشتغل مخيلتها بفهم الباقي.

فهذه المعيشة التي تمر على البنت، وأهم ما فيها عندها الرجل

وأحواله ونسبها إليه وعلاقاتها به وبعدها عنه وقربها منه، هي بلا ريب أعظم مؤثر في مزاجها، لأنها تجعل للوظائف التناسلية الشأن الأول في حياتها.

ولتأكد الرجال من صحة ما ذكرنا، وشعورهم بأن النساء لا همّ لهن ولا شاغل لعقولهن إلاّ شأنهن مع الرجال، لا ترى رجلاً بين المصريين يأتمن زوجته ويرضى بمعاملتها لرجل أجنبي عنها، وفي بعض البيوت لا يأتمن الرجل شقيقه ولا يسمح لامرأته أن تكلمه وتكشف وجهها عليه ولو كان حاضراً معهما، وكذلك في كثير من العائلات لا يختلط الرجل بشقيقة زوجته.

وليس من رأيي أن أعيب الرجال والنساء على سوء ظن بعضهم ببعض إلى هذا الحد، لأن عوائدنا وأخلاقنا وتربيتنا الحالية قضت عليهم بأن لا يثق بعضهم ببعض، وجعلت الحجاب الوسيلة الوحيدة لصيانة النساء، ولم تجعل من الدين ولا من المروءة ولا من كرم الخُلق ولا من حُسن الأدب أدنى وسيلة لصيانة العفّة والتنزه عن الفحش.

ولكن ليسمح لي القارىء أن آتي على بقية فكري فأقول:

بقي الحجاب إلى الآن مستمراً للأسباب التي بينّاها، أي لأنه كان تابعاً لهيئتنا الاجتماعية الماضية، من الجهة السياسية والعقلية والأدبية، كنّا محكومين بالاستبداد فظننا أن السلطة العائلية لا تؤسَس إلاّ على الاستبداد، فسجنّا نساءنا وسلبناهن حريتهن، وملكنا وحدنا حق رفع قيد الزواج، واستعملنا في تربية أولادنا الأمر والنهي والإخافة والضرب. وكنّا جُهالاً فتخيلنا أن المرأة لا وظيفة لها ولا عمل لها إلاّ أن تكون موضعاً لشهوة الرجل وواسطة من وسائط مسرته، وفاتنا أنها هي أيضاً إنسان مثلنا، وأن لها الحق في أن تسعى إلى طلب سعادتها

بالوسائل التي وضعها الشارع تحت تصرف الرجال لطلب سعادتهم، فلمّا أسقطنا منزلة المرأة بغير حق انتقم الحق منّا وشدّد انتقامه، فحرمنا كذلك من السعادة الحقيقية، وانحطت أخلاقنا، وفسدت تربية أولادنا، واستولى الحزن واليأس على قلوبنا حتى ظنّ الكثير منّا أن حياة الأمم الإسلامية اقتربت من نهايتها ولم يبقَ لها في التزاحم العام نصيب من النجاح، وأخذوا يتباهون بالمَدَنية الإسلامية القديمة كلما تحدث الأوروبيون بعلومهم وفنونهم، ويفتخرون بالتمدن العربي في الأعصر الماضية كلما ذكر التمدن الغربي الحديث، كما تُسلّي نفسها عجوز وصلت إلى سن الشيخوخة بتذكار جمالها مدة صباها.

لكنا اليوم قد تغيرت حالتنا الاجتماعية تغييراً كلياً، فأصبحنا أحراراً ونحب الحرية، وبدأ التعليم الصحيح في أن ينتشر بين أفراد أمتنا، وتهيأت عقولنا إلى إدراك منزلة الإنسان في الوجود ومرتبة المرأة في البيت وشأنها في العالم، فهل يليق بنا بعد هذا أنِ نحافظ على العادات والتقاليد القديمة، ونحرص على عادة الحجاب ونتخذها وحدها وسيلة لصيانة المرأة، أو يكون من الأليق بنا أن نبحث عن وسيلة أخرى تكون موافقة لحالتنا الجديدة التي انتقلنا إليها ويكون من شأنها أن ترتقي بنا إلى ما هو خير منها؟

وبعبارة أخرى: يوجد مذهبان أحدهما: ينصح الناس بالتمسك بالحجاب، والثاني: يشير عليهم بإبطاله، فأي هذين المذهبين يجب أن نختاره؟ وما هو رائدنا في الاختيار حتى لا نقع في عاقبة الخطأ؟

إذا استخدمنا عقولنا، واتخذنا الفكر السليم رائداً لنا، فلا شك أنّا نختار المذهب الذي يتفق مع مصلحتنا، وتتوفر به منافعنا، ولا نخشى بعد ذلك أن يقع اختيارنا مُخالفاً للحق والصواب، لان المنافع

الصحيحة التي تقوم على قواعـد الفكر السليم هي من الحق الـذي يُدافع عنه الشرع، ومن المستحيل أن حقاً من الحقوق التي يدافع عنها الشرع يكون منشأ لضرر يعود على الناس، أو أن فضيلة من الفضائل يكون شرها أكبر من نفعها.

فأي المذهبين يتفق مع مصلحتنا، وتتوفر به منافعنا؟

أما الحجاب فضرره أنه يحرم المرأة من حريتها الفطرية، ويمنعها من استكمال تربيتها، ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة، ويحـرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والأدبية، ولا يأتي معه وجـود أمهات قادرات على تربية أولادهن، وبه تكون الأمة كإنسان أُصيب بالشلل في أحد شقيه.

ومزاياه تنحصر في أمر واحد هو أنه يُقلِّل الزنا، حيث يحـول بين الصنفين، ويمنع الاختلاط بينهما في الظاهر، وإن لم ينزع الميل إليه من النفوس، فيكون ما يُسمونه عفّة على حد ما قيل:

* أن من العصمة أن لا تجد* فالأجساد في صيانة، وأغلب القلوب في خيانة!

وأما الحرية فمزاياها هي إزالة جميع المضار التي تنشأ عن الحجاب، وسبق ذكـرهـا، وضررهـا الـوحيـد أنها في مبـدئهـا تؤدي إلى سـوء الاستعمال، ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة إلى أن تعرف مسؤوليتها وتتحمل تبعة أعمالها وتتعوّد على الاعتماد على نفسها والمُدافعة عن شرفها حتى تتربّى فيها فضيلة العفّة الحقيقية، التي هي ترفع النفس المُختارة الحرّة عن القبيح، لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في مكافأة ولا لوجود حائل ليس في الإمكان إزالته بل لأنه قبيح في نفسه.

وليس من الممكن أن تصل المرأة إلى هذه المنزلة الأدبية ما دامت في الحجاب، ولكن من السهل جداً أن تصل إليها بالحرية.

تصل إليها كما وصلت إليها غيرها من النساء الغربيات، فإنا نرى أنه كلما زيد في حرية المرأة الغربية زاد عندها الشعور بالاحترام لنفسها ولزوجها ولعائلتها.

قال العلاّمة «ماتنجازا»: «أعظم شيء يؤثر في أخلاق البنات الحرية التي تُعطى إليهن من عهد طفولتهن».

وقال: «إن الفضائل الجليلة التي تُشاهد عند النساء اللاتي يتمتعن بحريتهن لا يصح أن تُنسب إلى الإقليم، لأني وجدت هذه الفضائل في «بيونس ـ آيرس» التي تشتد فيها الحرارة ويصفو فيها أديم السماء وتنمو فيها الثروة العمومية، ولو كان لطبيعة الإقليم مثل هذا الأثر في الأخلاق لفسدت أخلاق النساء في تلك البلاد. كانت البنات عندنا في القرن الماضي وفي مبدأ هذا القرن لا تخرج من الأديرة إلاّ عند الزواج، وكنّ جاهلات بكل ما يتعلق بالحب، فكنّ يتلقين دروس الحب من غير الزواج في أغلب الأحيان، ذلك لأن من القواعد العامة أن البنت التي تختار زوجها بل تُكلف بقبوله تكون قد قطعت نصف المسافة التي توصلها إلى الخطيئة، فلا شيء يقي البنت من الفساد مثل اختيارها زوجها بنفسها بعد أن تعرفه وتُقارن بينه وبين غيره من الرجال».

وقال في وصف نساء وطنه: «إن المرأة الطليانية أقل من غيرها عفّة لأنها تتزوج غالباً من غير أن تحب زوجها، وكذلك الحال تقريباً في نساء فرنسا».

أما النساء الإنكليزيات والأميركانيات والألمانيات فأثنى على كمال

عفتهن، ونسبها إلى طُرُق تربيتهن وتمتعهن بالحرية والاستقلال في أعمال الحياة.

فالحجاب والحرية وسيلتان لصيانة المرأة، ولكن ما أعظم الفرق بينهما في النتائج التي تترتب عليهما! حيث أن الوسيلة الأولى تضع المرأة في صف الأدوات والأمتعة، وتجني على الإنسانية، والثانية تخدم الإنسانية، وتسوق المرأة في طريق التقدم العقلي والكمال الأدبي.

فقد رأيت مما ذكرناه أن ما اخترناه في تربية المرأة ووقاية عفتها ليس مبنياً على أمر نظري لا يستند إلى واقع بل هو مؤسس على المشاهدة والتجربة.

وصل احترام الرجل الغربي لحرية المرأة إلى حد أن الأب يحجر على نفسه فتح الخطابات التي ترد لبنته، وكذلك الزوج رأى الأجدر به أن لا يفتح الخطاب الذي يرد إلى امرأته. وهذه المسئلة الاخيرة كانت موضوع بحث مهم بين أعضاء جمعية المحامين الفرنساويين من منذ عشر سنين تقريباً، وتقرر فيها أن سلطة الزوج لا تبيح له أن يطلع على أسرار زوجته، لأن هذا العمل يُعد تجسساً مهيناً لحرية المرأة وشرفها.

نعم، إن أغلب الزوجات يُطلعن أزواجهن على ما يرد إليهن من الخطابات، كما أن أغلب الأزواج يعرضون المراسلات التي ترد إليهم إلى زوجاتهم، ولكن يوجد فرق عظيم بين ما يحصل بالرضا وما يُعد واجباً بمقتضى حق يُدّعى.

بلغ من أمر احترام الرجل الغربي لحرية المرأة أن بنات في سن العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان في الأرض، وحدهن أو مع خادمة، ويقضين الشهور والأعوام مُتغيبات في

السياحة، متنقلات من بلد إلى أخرى، ولم يخطر على بـال أحد من أقاربهن أن وحدتهن تعرضهن إلى خطر ما.

كان من حرية المرأة الغربية أن يكون لها أصحاب غير أصحـاب الزوج، ورأي غير رأي الزوج، وأن تنتمي لحزب غير الحزب الذي ينتمي إليه الزوج، والرجل في كل ذلك يرى أن زوجته لها الحق في أن تميل إلى ما يُوافق ذوقها وعقلها وإحساسها، وأن تعيش بالطريقة التي تراها مُستحسنة في نظرها.

ومع كل ذلك ترى نظام بيوت هؤلاء الغربيين قائماً على قواعد متينة! ونرى هؤلاء الأمم في نمو مستمر! ولم يحل بهم شيء من المصائب التي يهددنا بها أولئك الكتّاب والفقهاء من قومنا الذين أطالـوا الكلام في شرح المضار التي تنتج عن إطلاق الحرية للنساء! فكثيراً ما سمعنا منهم أن اختلاط الرجـال بالنسـاء يؤدي إلى اختلاط الأنسـاب، وأنه متى اختلطت الأنساب وقعت الأمة في الهلاك.

فهذه ممالك أوروبا جميعها نساؤها ورجالها مختلطون، في كل أطوار الحياة في كل آن. وها هم إخواننا وأبناء وطننا المسيحيون واليهود الذين تـركوا عـادة الحجاب من عهـد قـريب وربـوا نسـاءهم عـلى كشف وجوههن، ومعاملة الرجال، فأين هم من الاختلال والهلاك؟!

لنترك هذه النظريات الخيالية التي لا قيمة لها أمام الوقائع.

دلّت التجربة على أن الحرية هي منبع الخير للإنسان، وأصل ترقيه، وأساس كماله الأدبي، وأن استقلال إرادة الإنسان أهم عامل أدبي في نهوض الرجال، فلا يمكن أن يكون لها إلاّ مثل ذلك الأثر في نفوس النساء.

غاية الأمر أن كل تغيير يعرض على الأنظار في صورة مشروع يلتمس قبوله ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل هو في الحقيقة فكر سبق أوانه وقت عرضه، ولهذا لا يفهمه ولا يُقدّره حق قدره إلّا العدد القليل ممن يمتد نظرهم إلى ما يَكُنّه المستقبل من الحوادث.

انظر إلى حالة مصر: عاشت الأمة المصرية أجيالاً في الاستعباد السياسي، فكانت النتيجة انحطاط عام في جميع مظاهر حياتها، انحطاط في العقول، وانحطاط في الأخلاق، وانحطاط في الأعمال، وما زالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسماً ضعيفاً عليلاً ساكناً يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان، فلمّا تخلصت من الاستعباد رأت نفسها في أول الأمر في حيرة لا تدري معها ما تصنع بحريتها الجديدة.

وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى، ولا يقدر لها قيمة، وكان الناس يستخفون ويهزؤون بالحرية، بل ويتألمون منها، وينسبون إليها اختلال عيشتهم وعلل نفوسهم، فكم من مرة سمعنا بأُذننا أن سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة! . ثم اعتاد القوم شيئاً فشيئاً على الحرية، وبدؤوا يشعرون بأن اختلال عيشتهم لا يمكن أن يكون ناتجاً عنها، بل له أسباب أخرى، وتعلق بنفوس الكثير منّا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها، ولنا الأمل في أولادنا الذين يشبون على الحرية التامة، يجنون جميع ثمراتها النفيسة التي من أهمها تهيئة نفوسها للعمل، عند ذلك يعرفون جيداً أن الحرية هي أساس كل عمران وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء.

أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها، ويظن الناس أن بلاء عظيماً قد حلّ بهم، لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية،

ثم مع مرور الزمن تتعوّد المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئاً فشيئاً وترتقي ملكاتها العقلية والأدبية، وكلما ظهر عيب في أخلاقها يُداوى بالتربية حتى تصير إنساناً شاعراً بنفسه.

ذلك لأن النمو الأدبي لا يختلف في سيره عن النمو المادي، فكما أن الطفل يحبو قبل أن يمشي، ويتعلم المشي بالتدرج، فيُمسك الحائط ويستند على يد مرضعته، ثم متى تعلم المشي وحده لا يحسنه إلّا بعد تمرين يدوم مدة أشهر يقع في خلالها مرات كثيرة، كذلك الإنسانية في سيرها الأدبي لا تنتقل من حال إلى حال أحسن منها إلّا بالتدريج وبعد تمرين طويل يعرض لها فيه كثير من التخبط واختلال والتجارب المؤلمة حتى تستقيم في سيرها.

تلك سُنّة الفطرة. فلا يجوز لنا أن نتخيّل أن في إمكاننا الخلاص منها ولا الفرار من قيودها. كذلك لا يكون من الحكمة أن نرجع إلى الوراء أو نوقف تقدمنا إلى الأمام.

فإن أردنا أن نصل إلى الغاية التي وجهنا إليها آمالنا فما علينا إلّا أن نستسلم إلى حكم السُنّة الإلّهية، ونقبل المتاعب والمشاق التي بدونها لا يمكن الوصول إليها، وإلّا كان مثلنا كمثل أب مجنون خاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فمنعه المشي حتى كبر فعاش مقعداً مشلول الرجلين.

الفهرس

مختارات

لا شكَّ أنَّ القارىء العربيَّ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الاطِّلاع على تراثه الفكريِّ العظيم المتمثِّل بالأدب والتاريخ والفلسفة والفقه وعلم الكلام وغيرِ ذلك من ميادين الثقافة والمعرفة.

وبما أن تحصيل هذه المعرفة الموسوعية المتكاملة لا يكادُ يُتاحُ إلاّ لأفراد قلائل من ذوي العقول المتميِّزة والبصائر المتوقِّدة، كان لا بدَّ لنا من تقديم هذا التراث بشكلٍ مختصرٍ وجامعٍ في الوقت نفسهِ، بحيث يوافق هذا الإطارُ المقْتَرَحُ أكثريةَ القرّاء العرب، وخاصة طلابَ المراحل الثانوية والجامعية. فكانت هذه السلسلةُ عن أعلام الأدب من نثر وشعر، تولّى كتابتها مجموعةٌ من الاختصاصيين الذين تَحَرّوا فيها السلاسةَ في الأسلوب والعمقَ في التحليل والاختصارَ في المعلومات، بما يحقّق الهدفَ المنشودَ من إصدارها.

كما نشير إلى أننا ـ بالإضافة إلى هذه السلسلة التي بين يديك عن أعلام الأدباء والشعراء ـ أصدرنا، وسنصدر تباعاً إن شاء الله مجموعاتٍ أخرى عن أعلام الفكر العربي والغربي في مختلف الميادين المعرفية، بنفس الأسلوب والمنهج اللذين اتبعناهما في إصدار هذه السلسلة. والله من وراء القصد.